الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



قصص

أمبارو دابيلا

أشجار متحجرة

ترجمة: محمد ابراهيم مبروك

• الكاتبة:
أمبارو دابيلا. كاتبة مكسيكية.
•ولدت فى قرية "بينوس" التابعة لمدينة "تاكا تيكاس" عام ١٩٢٨.
• واحدة من أهم كاتبات أمريكا اللاتينية فى القرن العشرين.
أسهمت كتاباتها فى دفع موجة التجديد بالقارة، وبرغم قلة إنتاجها الذى لم يتجاوز بضع مجموعات قصصية هى "حين تقطعت الأوصال" عام ١٩٥٩، و"أشجار متحجرة" عام ١٩٧٧، و"موسيقى حية" ١٩٦٤، إلاّ أنها تلقب فى أمريكا اللاتينية بـ"المايسترو" ويعتبرونها من أوائل المؤسسين والكاتبات المهمات فى القارة، وقد حازت جائزة "بياروتيا" للآداب.

الجائزة:
جائزة "بياروتيا" للآداب.
وهى جائزة تُمنح من الكُتاب للكُتاب، تأسست فى المكسيك عام ١٩٥٧، بمبادرة من الناقد الأدبى "فرانسيسكو زنديخاس".
وقد منحت فى أولى دوراتها للكاتب المكسيكى الشهير "خوان رولفو" عن روايته "بيدروبا رامو". فى البداية كان يتم منحها باسم جمعية أصدقاء "خابيير بياروتيا". ثم منحت باسم جمعية "الفونسو" العالمية، وتمنح الآن باسم جمعية "الفونسو" والمجلس القومى للثقافة والفنون من خلال المعهد القومى للفنون الجميلة، وأحياناً تُمنح الجائزة لأكثر من كاتب فى الدورة نفسها، وأحياناً تمنح عن مجموعة أعمال كاتب بعينه إن تراءى ذلك للجنة التحكيم.

قصص أشجار متحجرة

دابيلا، آمبارو.
أشجار متحجرة: قصص/ أمبارو دابيلا؛
ترجمة: محمد إبراهيم مبروك. ـ القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
١٦٠ص ؛ ٢٢سم. ـ (جوائز)
تدمك ٤ ٦٨٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص.
أ ـ مبروك، محمد إبراهيم. (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٩٩٣/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -686 -4

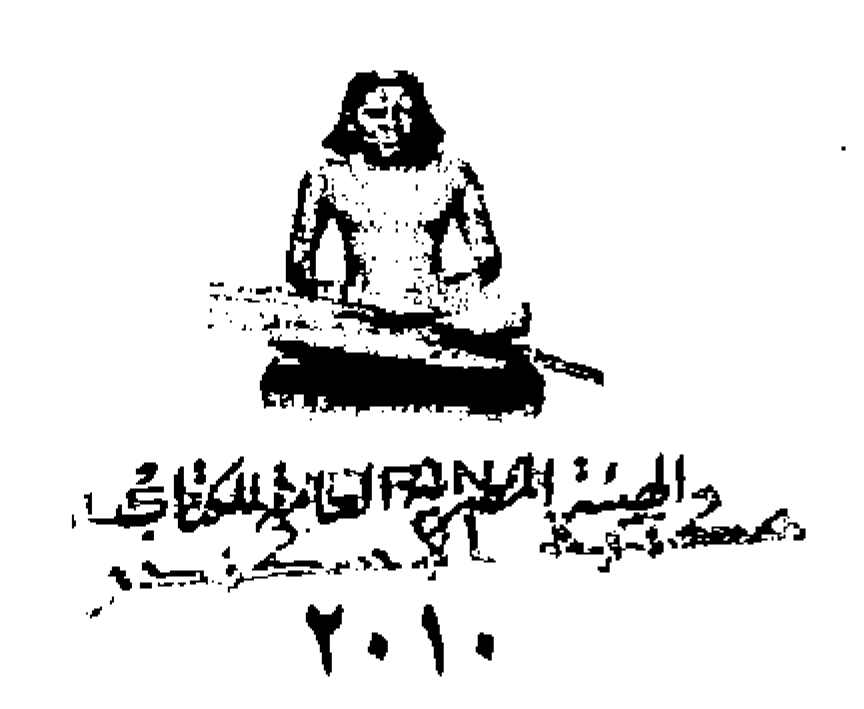
ديوى٨٣, ٨٠٨

أشجار متحجرة

قصص

أمبارو دابيلا

ترجمة: محمد ابراهيم مبروك



٢٠١٠

• الكتاب: أشجار متحجرة

ARboles Petrificados

• تأليف: أمبارو دابيلا

Amparo Dávila

• ترجمة: محمد إبراهيم مبروك

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الطبعة الأولى ٢٠١١.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

فـنـاء مُريِّع

الدنيا ليلت . ومن الفناء المكشوف أمكننى أن أرى شفق شديد الاحمرار مثل الاشتعال أو مثل بحر أرجوانى . كان فناءً من تلك الأفنية الخاصة، المربعة، بممرات وحجرات من كل جانب . أوراثيو كان إلى جوارى يتطلع إلى الغروب . وفى أركان الممرات، ظهر بعض الأشخاص الملثمين يتسحبون فى هدوء كما لو كانوا كورسًا ثانويًا، بموكب لمحفة وصوتهم خارج من سرداب . لم أعرف إذا كان هذا من أجل هذا الغروب، المضرج بالدماء أو لأن تلك الساعة من المساء التى يحس المرء فيها بشكل خاص بالحزن، الذى لا أحد منا نحن ـ الاثنين ـ تكلم عنه . فجأة انكشف منظر جانبى لرجل مقصوص على خلفية عميقة بالغة الاحمرار للسماء، مثل خنجر أسود، مسمر فى كورنيش الفناء . وأوهى دفعة كانت كافية لأن تجعله يتدهور فى الهوة .

ـ راح للموت برجليه .

ـ راح للموت برجليه . ـ قلت ذلك مرة أخرى، لأن الرجل ظهر دون أن يخطو خطوة واحدة للوراء، كما لو أنه كان عازمًا بقوة على أن يرمى بنفسه إلى الهوة .

وبحثت بناظرى عن أوراثيو لكنه لم يكن بجانبى بالفعل . طمأنت نفسى؛ لأننى عارفة أنه أدرك رسالتى وأنه ذهب لإنقاذه . وفى قلق انتظرت وأنا أراه يصل وراء الرجل؛ لكن الدقائق مرت وأوراثيو لم يظهر. بينما كان الغروب يتمزق متحولاً إلى خرق مضرجة بالدماء .

عندئذ عرفت أن أوراثيو كان فى مواجهة المنتحر الآخر فى أقصى الفناء . فى موقف مماثل، كما لو أنهما خنجران متقابلان مغروسان وجهًا لوجه، مثل لمبتين نيون على لوحة شطرنج .

ـ راح للموت برجليه ـ قلت ذلك بالفعل دون أمل، وأنا أحدق شاخصة إلى المجهول .

وفى هذه اللحظة نفسها ألقى أوراثيو بنفسه إلى الهوة . والملثمون الذين كانوا يبدون وهم لا يتحركون طوال الوقت أطلقوا نعيقًا كارثيًا ورموا أنفسهم بشراهة فوق الجسد الواقع وهم يغطونه بأجنحتهم الضاربة إلى اللون البنى والمكسوة بالأغشية .

وأنا بدأت أتراجع للوراء . . . ودخلت إلى الحجرة حيث لعب الطفولة محفوظة لكن تلك الحجرة كانت مليئة دائمًا بالدمى، كرات، دببة، قباقيب تزحلق، وهى الآن غرفة ملابس بشماعات حافلة بالثياب . فى مرة

دخلت إلى هناك وبالفعل لم يكن ممكنًا رؤية شىء سوى قطع ملابس فى كل ناحية، كما لو أنها محل لملابس مرهونة، أو تلك المحال التى تؤجر الملابس لكل المناسبات . كانت مئات، آلاف من البدل والفساتين الجميلة، والغالية الثمن من طرز التفصيل والألوان بالغة التنوع، وأى قطعة ملابس يستطيع الإنسان لو أراد أن يجدها هناك . وبحماس شديد فرغت نفسى كى أجرب كل الحاجات، لكن لا شىء كان جميلاً علىَّ. أو كان كبيرًا، أو صغيرًا، طويلاً، محزقًا . لا شىء على قد مقاسى . لا شىء . بدأت أحس بالإحباط وأعانى فى الحقيقة؛ لأننى لم أجد شيئًا يناسب طولى، لكن لم أكف عن تصميمى وقست على نفسى فساتين، وفساتين أكثر، وأكثر من بالطو، وحقائب سيدات، وقبعات، وبلوزات، وجونلات، وأشياء مهملة .

كانت الدنيا قد ليلت تمامًا عندما سمعت من ينادينى باسمى مرة ومرة أخرى . تعرفت على صوت أوليفيا، الذى خرج من بين الملابس:

- أوليفيا، أين أنتِ؟

لم ترد على سؤالى، لكنى عدت أسمع النداء نفسه:

- أوليفيا، أوليفيا، أين أنتِ؟

- أنا هنا، فى وسط الحجرة . أجابت حينئذ بصوت بالغ الخفوت كما لو أن الفستان يخنقها .

وأنا عملت على تحريك الملابس، وملابس أكثر جاهدة فى أن أفصلها عن بعضها، ومفسحة لى طريقًا باتجاهها. ونجحت فى المرور بين شماعة فوجدت أخرى وبعد ذلك أخرى ثم أخرى وأخرى، كما لو أن الملابس والشماعات تتضاعف أعدادها ولن تسمح لى أبدًا بالوصول إلى أوليفيا . وفى النهاية نجحت فى الخروج من ذلك العالم من الملابس، ورأيتها وكل ما ترتديه أسود وتحجب وجهها بنسيج شفاف أسود أيضًا . كانت واقفة على قدميها فى وسط دائرة، محيط بالغ الصغر والذى يبدو أنها تنتمى إليه، وسألتها:

- ماذا تفعلين هنا؟

وهى تقدمت خطوة أو لم تتقدم، لكننى أحسست أنها تمشت نحوى، بينما يداها تبعدان النسيج الشفاف الذى يحجبها، وقالت:

- أنا ميتة . ألا تعملين حسابًا لكونى ميتة، كم مضى من الوقت وأنا ميتة؟

وما أن خلعت الطرحة التى تغطيها حتى وجدت نفسى أمام وجه مجوف، حفرة حيثما نظرت إلى فراغ .

- أنا ميتة، ميتة .

وظلت تتقدم ببطء باتجاهى . أنا التى رميت نفسى فى تلك الورطة من الملابس، والتى تتطاير الآن

والتى هى خفافيش سوداء، وطيور بوجه، ونسور، وعناكب، وأنا بدأت فى التراجع، فى التراجع... اندفعت داخل حجرة؛ حيث كان بها رجلان مسنان، جالسان أمام منضدة بثلاث أرجل يقرءان فى كتاب كبير تحت نور ضارب إلى البياض من لمبة تتدلى بحبل . فوجئت بظهورهم المرعب، وهما رفعا نظرهما عن المجلد لكى يراقبانى وقد وضعا يديهما عليه كله. نجحت فى رؤية ما يقرءانه وهو كتاب تفسير الأحلام،

ومن خلال ما وجدته مقنعًا جدًا وفرصة لأن أستشيرهم فى شىء يشغلنى جدًا منذ زمن طويل. رحبا بأن يشرحا لى ودعيانى بلطف أن آخذ مكانى على مقعد أمام المنضدة فى الزاوية الثالثة والتى لم يكن يشغلها أحد.

ـ هو رجل، وهو نفسه دائمًا، يطاردنى بخنجر كبير فى الليالى كلها عندما أنام. إنها عاصفة لا يمكن التعبير عنها الخوف، الخوف من أن أعيش مع الذى فى يوم ما يلحق بى وأنا لم أستيقظ بعد . هذا ما قلته لهما.

ـ أنا أعرف جيداً ما هو ذلك . قال أصغر العجوزين . أنا أعانى من الاضطهاد يوميًا، وبشكل مستمر، من سحابة من الفراشات السوداء التى تظهر دائماً فى أية لحظة، فى أى جزء حيث تجدنى. إنها سحابة صفيقة لدرجة أنها تتلاقح فوق رأسى، وأنها إذا تحلقت، تتزحزح بنفس سرعة جريى لا تترك لى

مكانًا أحتمى به وأتحرر منها. إنها تطاردنى دون كلل كما لو أنها ظل مخبر يعمل لحساب جهة عليا؛ أحياناً أحس بها بالفعل شديدة القرب منى لدرجة أن علىَّ أن أرفع اليدين فوق رأسى وأتحايل، إذ ألصق رأسى تقريبًا بالأرض كى أتفادى احتكاك أجنحتها المغربلة من التراب المائل للون البنى والقاتم.

ـ تخيلوا، الرموز، مطاردة الشر ـ صرخ العجوز الأكبر، مقاطعًا الرجل الآخر ـ لا مفر ممكن فى الهروب من أنفسنا نحن. فالتشوش الذى بداخلنا يتجه دائمًا للبروز خارجنا. والحيلة هى طريق يتجه لأية ناحية... لكن لا يجب أن تعانى ولا أن تتعذب، نشرع فى اللعبة؛ الجو ملائم، السحر وحده هو ما يبقى، التفكير السحرى، السحر الذى لا يمكن الإمساك به للكلمة.

ـ نعم، فلنشعل النار، لأن علينا أن نسجد للنار، السحر الأحمر. مصهللة ومستعرة. قال ذلك الرجل الآخر وهو يخرج قداحته وباعث الشرر كان قضيبًا معدنيًا كبيرًا، جميلا ولامعًا. والرجلان شرعا فى إشعال نار بكل ما كان موجوداً فى الحجرة، فحطموا الكراسى، والدكك، وكومًّا وسائد، كتب وأوراق انتزعاها من خزانة كبيرة خضراء للملفات.

ـ لتأت الآن الفراشات السوداء! ـ صرخ العجوز الأصغر ضاربًا صدره بقبضته مثل إنسان الكهوف ـ نعم! لتأت الفراشات السوداء لتحترق وخزاتها

المجنحة فى نار الأسلاف، النار التى لا تفنى أبدًا. النار التى لا نهاية لها بالأمس، واليوم، وغدًا.

ـ هذه كانت ذكريات طفولتى ـ صرخ ضاحكًا بقهقهات عالية العجوز الأكبر ـ فلترقد بسلام فيك، آه أيتها النار! آه أيها السحر الأحمر! آه أيها القالب المستدير ويا قصبة الساق الكبرى، التى تحدث فينا أمرًا جللا. ومزقت أوراقًا مصفرة.

ـ تحبنى، لا تحبنى، كثيرًا، قليلا لا شىء، تحبنى، لا تحبنى، كثيرًا، قليلا.

ـ ساعدينى ـ صرخ العجوزالأكبر بينما يخرج ربطة من الإيصالات، كثير منها مختوم ـ فلنحرق إيصالات الإيجار، وإيصالات النور. إيصالات التليفون وإيصالات الغاز، إيصالات العاهرات، التى أرشفناها لكى ننقل بالتفصيل قائمة جرد بالداخلات والخارجات، حتى نكون مراعين للنظام ودفاترنا مضبوطة، الحسابات الجنسية، والحسابات المالية، مثل الكائنات المرتبة، الذين يعتنون بتسجيل ما يجرى فى حياتهم فى كل يوم والذين يكتبون يومياتهم وذكرياتهم.

ـ وأنا بدأت أتعرى، ورحت ألقى بقطع ملابسى التى خلعتها، كشكل وحيد للتعاون، الذى أستطيع أن أقدمه لتغذية النار. وهما منشغلان بشدة بالقيام بعملهما، يرفعان، فقط، من حين لآخر النظارات، التى غطاها الدخان بالهباب، ويبتسمان مسرورين بما يكفى بذلك التعاون التلقائى فيما بيننا.

ـ لا، ذلك لا. ذلك لا ـ صرخ العجوز الأصغر عندما رأى الرجل الآخر ماضيًا ليرمى فى النار بثلاثة دفاتر ممتلئة بالصور الفوتوغرافية ـ ذلك لا، أبدًا، إذ لابد من إنقاذ الصور الإباحية، ما الذى سنفعله بعد ذلك بدونها؟ ـ قال مخفضًا صوته حتى انتهى إلى كونه فقط همس عذب ـ ما الذى سنفعله بدونها فى تلك الليالى الطويلة من الأرق؟ ـ وبدأت عيونهما تطوف دامعة بشدة ـ فكرت بأن خيالنا بالفعل ليس عذراء فتية، وليس سوى امرأة طاعنة فى السن، وأنها متعبة، وتلمس المساعدة لكى تعبر الطريق...

ـ حسنًا، لننقذ الصور الإباحية ـ قال العجوز الأكبر بشكل كامل مقتنعًا بالدموع الثقيلة ومفكرًا بشكل أكثر تعقلاً عن صديقه.

ـ لننقذها الصور الإباحية، ماتاريلى، ريلى، ريلى، ماتاريلى، ريلى رون ـ لنغنى الآن نحن ـ الثلاثة ـ ممسكين بأيدينا حول النار ـ ماتاريلى، ريلى، رون، ما الذى تريده حضرتك، ماتاريلى، ريلى، روم؟

بدأت أعطس دون توقف؛ لأن الرماد من الأجنحة المحترقة للفراشات السوداء دخل حتى حنجرتى، والدخان بدأ يخنقنى. ودون أن أودعهم، فتحت الباب وخرجت.

وبدأت أتراجع للوراء.

وجدت نفسى فى قاعة كبيرة مليئة بالكتب. شىء هكذا أشبه بمكتبة كبيرة أو مكتبة فى حالة تجديد. إذ

كانت المجلدات مكومة على الأرضية، وفوق الدكك، والرفوف فارغة. فى كل ناحية هناك كتب. شاب نحيل وشاحب ينفضها بمنفضة برتقالية اللون، لكن لم يفعل شيئًا ليريحها فى الرفوف. وما أن رآنى حتى سار ناحيتى وسألنى إذا كنت أريد كتابًا ما، أجبته:

- من زمن طويل وأنا أبحث عن كتاب(*) Rabinal AchI.

سأل مندهشًا:

- El Rabinal Achi ؟

- نعم El Rabinal Achi.

- إنه غير مجدٍ بالمرة أن تريدى قراءة El Rabinal Achi دون أى استعداد. وبأى وجه كان.

قال ذلك بجدية، وهو يحك ذقنه بإصبعه الطويل المصفر. لا، لا يمكن.

- أريد أن تقول لى لماذا؟

- لكن... حضرتك لا تعرفين أنك لكى تقرئى هذا الكتاب تحتاجين أن تكونى قد وصلت إلى درجة معينة، ويقال إلى درجة عالية من الصفاء الذهنى.

- ليس هناك ما لا أعرفه، ولا ما أهتم به. أجبته مشددة جيدًا على الكلمات.

رفع كتفيه فى خجل وبقى مركزًا نظره علىَّ.

(*) كتاب من التراث القديم حافل بالأساطير وأبطال الحروب التى خاضتها قبائل المايا في جواتيمالا، وشكلت تاريخها وثقافتها قبل الاستعمار الإسبانى لأمريكا الجنوبية.

ـ ما درجة الصفاء الذهنى التى التمستها حتى تستطيعى قراءته؟ ـ سأل، بالفعل بصوت أكثر لطفًا.

ـ عليكِ أن تحققى المستوى الأساسى بتمرين يومى شاق معاقبة للروح والجسد. قال ذلك بجفاء، وواصل تنفيض الكتب.

ـ وذلك الكتاب، كيف أحصل عليه بواسطة تلك التمرينات؟

ـ حسنًا، إنه صعب بما فيه الكفاية شرح ذلك. وسيأخذ وقتًا طويلا ـ وسيتم ذلك دون مراعاة أكثر للسيد الذى وصل.

وبقيت أنا دون أن أعرف ما يفكر فيه، بالغ الغرابة، ومنزعجة من تصرف وموقف الشاب الشاحب. وتقريبًا فى اللحظة نفسها عاد وقال لى:

ـ أعتقد أننى أستطيع أن أزكيك لبدء التمرين، أو سيكون ذلك كخطوة بسيطة للبداية: El Hata Yoga

- El Hata yoga ؟ لا شىء يبدو لى من العالم الآخر. يجب أن تعرف حضرتك أننى خلال سنوات وأنا أقف على رأسى كل صباح عند قيامى من النوم.

ـ وليس ذلك بشىء ـ قال بسخرية ـ عندما تستطيعين حضرتك عمل هذا سنتكلم.

وأضاف إلى الزمن الذى ارتفعته عن الأرض نحو متر ووضع كتابًا على سطح/ رف أكثر علوًا من بائع الكتب ـ أو هذا ـ أضاف بينما أخذ الهواء بأنفه ورأيته

كيف يستند إلى الأرض فقط على الإصبع السبابة من اليد اليسرى وجسمه كله فى خط واحد، رأسى مع ساقيه متجهًا إلى فوق، ورأسه إلى تحت دون أن يلمس الأرض.

ـ لا شىء سهل، أليس كذلك؟ ـ قال ذلك وهو يعود إلى وضعه الطبيعى.

ـ وكم يكلفنى El Rabinal Achi ـ خطر لى أن أسأل، فقد كنت بالفعل مغتاظة من الإشارة التى لا تليق من ذلك الشاب شديد الشحوب.

ـ كم يكلف ذلك الكتاب؟ حضرتك لا يمكنك أن تشتريه، وهذا تقديرى يا سيدتى.

بحثت فى كيس نقودى لأعرف كم أحمل وكان معى ما يقرب من مائتى بيسو.

ـ معى نقود كافية لشراء ذلك الكتاب والكتب الأخرى التى تستهوينى.

أجبته وأنا أضغط على الكلمات.

ـ لا أتعامل بالنقود يا سيدتى. حضرتك لم تفهمى...

ـ لكن عندئذ، كيف يمكننى...؟

ـ قيمته ليست مادية، هذا ما قلته لحضرتك، وعليكِ حتى تستحقيه، أو تفوزى به أن تستردیه لو أردتِ حضرتك.

كيف كنت أعمل حسابًا لذلك الذى لم أفهم منه شيئًا، فقلت له بلهجة ودودة أكثر:

ـ تعال معى، وأرينى أين أجد El Rabinal Achi.

تبعته ومررنا إلى قاعة أخرى حيث كان بها حوض سباحة فى الوسط.

ـ انظرى إلى القاع.

ـ فى قاع حوض السباحة الذى كان مضاءً كما لو كان واجهة عرض كانت توجد كتب كثيرة، الحروف الفوسفورية للعناوين تتراقص فى الماء ...r...a...b- i n... l... a... ch... I ألا تبتل؟

ـ لا شىء يحدث لها، الماء عنصرها وهناك زمن كاف حتى يستحقها شخص ما أو يجرؤ على استردادها.

ـ ولماذا لا أخرج واحدًا؟

ـ لماذا لا تمضى حضرتك إليه؟ ـ قال ناظرًا إلىَّ بطريقة شديدة السخرية بدرجة لا يمكننى الصبر عليها.

ـ لماذا لا؟ ـ أجبته وفى الوقت نفسه كنت أغطس فى حمام السباحة.

وأنا ألقى بنفسى فى الماء فكرت أن عمقه لابد سيكون حوالى مترين وأننى بالغطسة الواحدة سأصل إلى القاع، لكن حمام السباحة اتضح أنه أكثر عمقًا والكتب كانت تحت أكثر من الحسبة التى حسبتها. واصلت غطسى وعندما ظننت أن يدىَّ تلمسان الكتب أدركت أنها لا تزال أكثر بعدًا فى القاع، ولا تزال أبعد.

وهكذا واصلت الغطس أكثر أكثر فأكثر، كل مرة أكثر، فى المياه المضاءة والفوسفورية، حتى أحسست بأننى لم يعد لدىّ هواء، والذى بقى فقط هو ما أحتاجه للخروج واستعادة التنفس. بدأت ـ حينئذ ـ فى السباحة متجهة إلى فوق بكل ما أملكه من قدرة على الإسراع. لم أعد راغبة بالفعل/ الآن لا فى الكتب، ولا فى أى شىء آخر سوى التنفس. التنفس بعمق، ملء الرئتين، التنفس مرة واحدة أكثر، مرة واحدة أكثر، وصعدت، وصعدت حتى الآن بلا هواء، يائسة من أن أتنفس قليلاً من الهواء، من الهواء، من الهواء... حتى اصطدمت يداى بشىء صلب ومعدنى، شىء مثل غطاء لناووس(*) ضخم.

(*) الناووس: حجر منقور توضع فيه جثة الميت/ مقبرة المسيحيين (لاروس للغة العربية).

الدائـــرة

عند الخروج من "سان بورنس(*) دى نيشا"، بعد أن كنت قد تناولت إفطارى مع صديقة لى... وكان مكونًا كما اعتدت من عصير برتقال، قهوة، شرائح خبز محمص بالزيد. شمس فاترة غمرت الشوارع. وفى ساعتى كانت الساعة تقترب من التاسعة، وكانت لا تزال هناك نصف ساعة قبل أن أذهب إلى موعدى مع السيد فرنانديث. قررت أن أقضى قليلا من الوقت أتفرج فيه على فاترينات العرض. وتوقفت أمام إحداها فى شارع هامبورج والتى جذبت اهتمامى بشكل خاص، أكياس للنقود جميلة من جلد التمساح من نوع ممتاز وموديلات أصلية حديثة، وكذلك شنط، وأحزمة، محافظ ومصنوعات جلدية كثيرة. وفى مرآة صادفتنى عند دخولى فى مدخل المحل رأيت نفسى منعكسة فيها، مما جعلنى أقترب منها لأسوى شعرى

(*) محلات سان بورنس فى المكسيك وهى تتكون من مطعم، وكافتيريا، وبار.

قليلاً. وعندما كنت أضع اللمسات الأخيرة للتسريحة، أتى شاب ووقف بجانبى، ما أن أحسست بنظرته حتى استدرت وأخذت أتأمله وجهًا لوجه. كان رجلاً وشابًا، أشقر، سرت فى جسدى قشعريرة قوية من أخمص قدمى إلى قمة رأسى، لم أستطع أن أكون شخصية أخرى، فلا أحد أكثر من أن يكون هو... هل أنت مار.. كوس؟ "نعم" سمعته، لكن لم ينبس ببنت شفة. فريسة لضيق لا يصدق ورعب لا يوصف، من ذلك الرعب الذى يدخل الحياة من أبواب الروح، بدأت أمشى باتجاه مكتب السيد فرنانديث. كنت أريد أم أجرى، أقدم على خطوة جنونية لا يمكن كبحها لأبتعد عن نظره، لكن رجفة قوية استولت على جسدى كله، وساقاى بالكاد تسنداننى. ودق قلبى بضربات صماء، وبنظرة جانبية؛ لأننى لم أجرؤ على أن أنظر له مباشرة، رأيته يمشى بجوارى. وتقريبًا يلصق جسمه بجسمى. وفجأة عند عبور الشارع، انشقت أرض الرصيف ووقعنا نحن - الاثنين - فى هوة هائلة، لكننا لم نتدهور فجأة إلى الأعماق إلا أننا هبطنا كما لو فى قلب دوامة أو من قوة طرد مركزية التى أعادتنا بسرعة إلى جوف الهوة. وهناك، معًا، مربوطين بتلك القوة الكاسحة، التى لا تقاوم نجحت فى رؤية ماركوس عبر العوز الواضح والذى تسرب الآن من على السطح. أحيانًا، أرى جسده كاملاً، عاريًا، رشيقًا وجميلاً كما كان، وأحيانًا أخرى، الرأس وحدها، أو الجسد مشوه، بعدها، أعضاء وحدها مبتورة، ذراع، ساق، يد واحدة،

أصابع متشنجة. العينين، الفم مشوه بابتسامة ساخرة لاذعة... لا، من أجل الرب، صرخت يائسة، وكما يقال، صرخت بداخلى... لأن الصوت لم يخرج من الحنجرة وفقط التفكير هو ما جمعنا. "لا. لا أريد أن أموت الآن، اتركنى، لدى أمور لا حصر لها لأقوم بها، عائلتى، أصدقائى، كل ما أحبه، لدىَّ الكثير، الكثير لكى أنجزه فى الحياة. كل ما كان علىَّ أن أنفذه من أوامر رئيس الرهبانية العسكرية، ولابد أن أنجزه قبل أن أمضى. لا... لا أحب، ولا أريد أن أموت الآن، لست مهيأة الآن، دعنى أخرج، أعود إلى السطح، إلى النور، إلى الشمس التى أحبها، وإلى تلك الأشياء الصغيرة، التى توهب لنا بلا مقابل، أنت ميت منذ وقت مضى وبالفعل أنت لا تستطيع أن تفعل ولا تستحق شيئًا، وبالفعل ليس لديك ما تفعله فى الأرض، يجب عليك أن تفهم ذلك، ابتعد، ابتعد عنى، وانظر إلى المكان الذى صار من نصيبك، فى المكان الذى لابد أن تكون فيه. حيث تستريح مع الذين سبقوك، أنا أريد أن أحيا. أحيا، يوجد دم فى عروقى، وتوجد رغبة هائلة، رغبات هائلة لم تشبع وتتعرض للضرر، تواصل تحققها، دعنى أواصل ما أحياه، من الرحمة، أنا خارجة منذ وقت قصير من الجحيم، أنا الآن مازلت فى المطهر، أنت تعرفه جيدًا، أنا لم أعرف سوى العذاب، والآلام، الضيق والوحدة، قبل أن أموت أريد أن أعرف أشياء كثيرة من التى تأتينى فى الحلم دائمًا. بلاد، بحور، أطلال، أماكن جميلة، كل ما يغذى

الروح، وأعرف أيضًا قبل أن أموت رجلاً حقيقيًا، بكامله، سليمًا، رجل كامل من كل الوجوه، رجل بمعنى الكلمة، وليس فقط قطعًا، ونفايات كائنات بشرية، من الأدنياء، أو كاريكاتيرات مؤلمة للرجل بتصورات غير أمينة أو مثيرة للرعب والتى تمزق الروح والأحشاء. أريد أن أعرف رجلاً حقيقيًا، أحس حبه واستمتع به، أتأكد من أن الرقة الحقيقية موجودة وببساطة، والطمأنينة، وسلام النفس، والهناءة البرجوازية ومحدودى الفهم الذين يشكلون من أغلبيتهم الأناس الذين يذهبون كل يوم سبت إلى السينما، وكل يوم أحد يخرجون لتناول طعامهم فى الخلاء، أريد أن أعيش، أريد أن أرى مرة أخرى، البحر، والسماء، أعين أطفالى، لا أريد، لا أريد أن أموت الآن، اتركنى لوجه الله، اتركنى أعيش... "وفى قلب هذه الظلمة الشديدة، لأن النور الآن مجرد ذكرى، أحسست بتلك الأعضاء باردة، متحللة مثل الجيلاتين، الذى يمتص من جسدى، كما لو كانت كئوس حجامة أو علقات ماصة للدم مجنونة لدرجة أنها تحاول أن تمتص الحياة. تبتلع وجودى، تجرفنى إلى تحت أكثر، وكل مرة إلى تحت أكثر، دون إشفاق على يأسى، ولا على صرخاتى التى تتحول إلى خوار وحشرجات صماء داخل حنجرتى. عندئذ، نعم، عندئذ، وصل من بعيد جدًا جرس طويل، الذى تتزايد حدته فى كل مرة. فتحت عينى وأخذت نفسًا شديدًا بعمق. كنت مبتلة بعرق بارد، وقلبى يدق بطريقة غير معتادة، والتنفس

كان يرجني بشدة كما لو كنت أجرى عبر الليل الطويل. "السابعة صباحًا؛ شكرًا للرب إنها السابعة صباحًا" سمعت نفسى أقولها بطريقة تقريبًا آلية، فى الوقت الذى جريت فيه فرحة عظيمة، فرحة أن أكون حية ما أزال ولست ميتة، أو ماضية إلى الموت كما كان فى الحلم المرعب، الذى انتهى حالاً، إنه شىء رائع أن أكون على قيد الحياة فى السابعة صباحًا يوم الإثنين من أغسطس وأكون قد أفقت من هذا الحلم الذى كاد يفقدنى رشدى.

ـ صباح الخير، يا سيدتى، هذا هو فنجان شايكِ قالت ذلك خوانا وقربت منى الفنجان الذى آخذه دائمًا أول ما أستيقظ .: لكن ما الذى جرى لكِ؟ إنكِ شديدة الشحوب، أتشعرين بأنكِ فى حالة غير طيبة؟

ـ لا، أنا فى حالة طيبة، فقط إننى كنت فى كابوس. كابوس مرعب، لكن الشكر للرب أنه انتهى. هل طلبنى أحد فى التليفون؟

ـ الآنسة تيريسا طلبتكِ بالليل قبل أن تأتى حضرتك، لكى تذكركِ بأنكما ستذهبان للإفطار معًا.

تناولت الشاى. ووضعت نفسى تحت الدش، ومع النشاط الذى أثاره الماء توقف توتر العضلات. وبعد أن دلكت جسمى بماء الكولونيا المفضل لى، أحسست بأننى أفضل كثيرًا كما لو أننى قد أخذت فترة راحة طيبة. ارتديت ملابسى ورتبت أمورى بعناية إذ علىَّ أن أرى عدة أشخاص بعد أن أتناول الإفطار مع صديقتى تيريسا.

السماء كانت صافية، مع زرقة لا تصدق عند خروجى من البيت، قرب الثامنة وبخيبة أملى الكبيرة، عندما أخرجت السيارة وجدت أن إحدى عجلاتها هابطة تمامًا.. دائمًا تحدث لها هذه الأمور عندما تكون الواحدة مستعجلة، وبعد ذلك بحثت عن تاكسى. لم أجد تاكسيًا، لأننى عارفة أنه فى هذه الساعة تعتبر معجزة أن تجد تاكسيًا. تيريسا لابد أن تكون قد جاءت، ما من شك لأننا نحن ـ الاثنتين ـ نحب الدقة. مثلما أننى خفت ألا ألحق بتاكسى وأن علىَّ أن أركب مواصلتين حتى أصل إلى سان بورنس دى نيثا؛ حيث كانت تنتظرنى صديقتى، وعندما وصلت فى النهاية، كانت هى بالفعل قد بدأت تتناول الإفطار. كانت تدخل مكان عملها فى التاسعة، وباقى فقط نصف ساعة. هدأت نفسى، ووجدتها تأكل بهدوء، وبدأت أحكى لها عن الظروف المعاكسة لى.

ـ لكن، ماذا عن تناول إفطارك الآن؟ ـ سألت قاطعة حكايتى وهى تبتسم؛ لأنها سرعان ما عرفت أننى لم أغير أبدًا إفطارى.

ـ إنه دائمًا الإفطار نفسه.

ـ لا شك أنكِ تأكلين مثل عصفور. أنا لم أفسر لنفسى كيف يمكنك أن تعيشى وتعملى بذلك الغذاء ـ قالت ذلك بينما كانت تلتهم طبقها من البيض مع لحم الخنزير والفاصوليا بالصلصة بالزيت المقدوح والفلفل الأحمر والثوم والبصل، وأنا أشرب بتأن قهوتى، بعدما

كنت قد تناولت عصير البرتقال وقطعة توست مدهونة بالزبد.

ـ لا تصدقينى لو حكيت لكِ أن ألبيرا بالفعل تزوجت.

ـ هل هذا بجد، أم أنكِ تهزرين؟

ـ لا. لا، لقد قلت ذلك بجد. لقد انتبهت بالفعل أنه وحده حتى اليوم الأخير.

ـ وكيف عمله؟

ـ الدنيا كلها تقول إنها معجزة تحققت له بهذا الوجه وهذا الجسم. وتناولت فنجانًا ثانيًا من القهوة.

ـ وعلاوة على ذلك، فهى مدبرة مقالب مرعبة، وأنا دائمًا أخرج منها.

ـ ومثلك الدنيا كلها.لكن التيتموت من الغيظ هى جويرا، أتتذكرين المواقف التى أخذتها مع الدنيا كلها؟

ـ وهكذا، بين تعليقات عن الفيلم الأخير، ورخص ثمن قصر الحديد، وعن رسالة لويس ماريو، عن أحذية بيرتيجاث والتى هى مصنوعة بإتقان ومريحة. وبقاؤنا نتفرج على يوم السبت فى الساعة السابعة مساءً لكى نذهب إلى معرض الرسامة فرانسيسا. وتيريسا ذهبت جريًا فى التاسعة وخمس دقائق وأنا مازلت أدخن سيجارة أخرى بكل هدوء.

عند الخروج من سان بوژنس، شمس فاترة تغرق الشوارع، ومن ساعتى كانت الساعة تقترب من

التاسعة، وكانت لا تزال هناك نصف ساعة قبل أن أذهب إلى موعدى مع السيد فرنانديث. قررت أن أقضى قليلا من الوقت، أتفرج فيه على فاترينات العرض، وتوقفت أمام إحداها فى شارع هامبورج، والتى جذبت اهتمامى بشكل خاص، أكياس للنقود جميلة من جلد التمساح من نوع ممتاز، وموديلات أصلية حديثة، وكذلك شنط، وأحزمة، ومحافظ ومصنوعات جلدية كثيرة. وفى مرآة صادفتنى عند دخولى فى مدخل المحل رأيت نفسى منعكسة فيها، مما جعلنى أقترب منها لأسوى شعرى قليلا ، وعندما كنت أضع اللمسات الأخيرة للتسريحة، أتى شاب ووقف بجانبى، وما أن أحسست بنظرته حين استدرت وأخذت أتأمله وجهًا لوجه. كان رجلا وشابًا، أشقر. سرت فى جسدى قشعريرة قوية من أخمص قدمى إلى قمة رأسى، ولم أستطع أن أكون شخصية أخرى، فلا أحد أكثر من أن يكون هو. ألست، حضرتك، ماركوس. حقيقى؟

ليلة الجيتارات المحطمة

فى أمسية يوم السبت، من تلك التى يخرج فيها الإنسان لشراء أى شىء، أو ببساطة ليتجول ساعات وساعات فى وسط المدينة، ويتوقف عند كل فاترينة، ويلاحظ بعناية المعروضات كلها، وكل واحد من تلك الأشياء، وكما يدخل فيها يخرج منها ليجد آلة إيقاع "جانج"، أو أى شىء آخر بحث عنها لزمن طويل. أولادى وأنا تمشينا فى الممر، الذى يقع خلف الكاتدرائية المتقاطع مع باعة التجزئة للأعشاب الطبية، وعندما اجتزناه دخلنا محلاً أمامه لبيع الأدوات الموسيقية حيث توجد آلات: الكمان، التشيللو، البونجو، الشخشيخة، وبشكل خاص: الجيتارات بكل أحجامها، ومستوياتها وأسعارها، توقف ابنى وابنتى مفتونين بما يريانه.

ـ انظر كم هو جميل هذا الجيتار الصغير. صاحت خاينا. اشتريها لى يا شابادا.

ـ لا أقدر على هذا الآن، يا حياتى.

ـ نعم، يا شابادا، نشترى واحدًا. طلب لورين هذا أيضًا.

ـ يا أولادى، أنا لم أحضر معى نقودًا.

ـ إذًا، بماذا تذهبين وتسددين ثمن كل تلك الأعشاب التى تشترينها؟ (مع أن خانيا تعرف جيدًا أن من أكبر هواياتنا شراء كل الأعشاب، والبذور، الجذور، واللحاء الذى يحمل اسمًا نادرًا وأسطوريًا عن فوائده الطبية. وبها أحضر ما يكفى من الحاجات، لكن بشكل خاص دواء شرب من المنقوع أو المغلى أو المطحون منها، وأكثر المرات، آخذها لإشباع فضولى فى التعرف على طعمها، وأتأكد فى الوقت نفسه، إذا ما كانت حقيقية أو مفترض أنها نوعيات شافية لما هى مخصصة له، ومن خلال التجربة الطويلة التى صارت لى فى تلك الفحوص، لابد أن أعترف أننى فى بعض المرات التى جربت فيها، وجدت مشروبات غريبة كريهة الطعم، أو المعرفة بها محدودة، ولقد عانيت من درجات خفيفة من التسمم حتى التسمم بشكل خطير، لكن لم أقلل بسبب ذلك من أن يظل اهتمامى حيًا والذى ظل دائمًا لدى بالبحث فى النباتات الطبية ولا الاندهاش أمام ولا التأكد من فوائدها. أوضحت لخانيا:

ـ الأعشاب تكلف قليلاً جدًا.

ـ لكنك تشترين مئات منها يا شابادا.

وبينما كنا خانيا وأنا نتناقش، أخذ لورين واحدًا

من الجيتارات الصغيرة التى كانت فوق رف العرض بجوار آلات البونجو (آلة إيقاع) والشخاشيخ، وبدأ يلمس الأوتار ليتحقق إذا ما كانت تصدر صوتًا مثلما تصدره الجيتارات الكبيرة، أو أنها كانت فقط للعب.

ـ اترك هذا الجيتار يا لورين. ووعدتهما بأننا سنأتى لنشترى واحدًا، فى السبت القادم.

ـ كم هى جميلة سترتك...!

نظرت باتجاه الأركان كلها وأنا أبحث من أين خرج ذلك الصوت الذى كان بالغ الرقة.

ـ هل هو من استعمال "كريمات"، خالية، أليس كذلك؟

وعندئذ اكتشفتها جالسة خلف إحدى فاترينات العرض فى العمق داخل المحل، وتقريبًا مختفية داخل هذا العالم من الآلات، ولم أستطع أقل من الإحساس الكامل بالافتتان بهذه المرأة التى تبدو كدمية حقيقية فى سن العشرين. كانت ببشرة وجه أسمر، تعطى انطباعًا بأنها شاحبة، على نحو يجعل المرء يتذكر "الجبل السحرى"(١) أو "غادة الكاميليا" (٢). وباقترابى منها أكثر، لاحظت أن هذا الشحوب المبالغ فيه، لابد أنه، من ناحية ما، يرجع إلى الأتربة الكثيفة التى تتضح فى لون الجلد والمستخدم بشكل زائد عن الحد. وفى هذا البرواز الأبيض مما نتج عنهما بشكل

---

(١) رواية لـ «توماس مان».

(٢) رواية لـ «ألكسندر ديماس».

ملحوظ عينان كبيرتان سوداوان. وأذنان عميقتان بنفسجيتان، واللتان تعطيان جاذبية غامضة. الحاجب كان فقط خط بالقلم الأسود لجين هارلو والفم ملون بلون أحمر قان على شكل قلب. "مثل قلوب حمراء، فم صغير لامرأة" وشعرها الكستنائى الغامق بتسريحة جميلة جدًا وملموم إلى الخلف بشريط معقود نصف عقدة أو أنه كان على وشك أن ينحل، والذى لم يكن يصدق فى هذا كله هو فستانها: فستان من القطيفة الحمراء القانية، مستهلك جدًا من الاستخدام والذى فى بعض المواضع تقريبًا ليس به وبر مع موجات من لون شفاف غير مدبوغ حول العنق وعلى الأكمام.

ـ هذا ما لا أعتقده ـ أجبتها . عندما نجحت فى التغلب على اندهاشى، والذى نسيت فيه مظهرها وإحساس غريب الذى بدأ الإحساس به عند رؤيتها. كما لو كان الزمن يتراجع إلى الخلف وأننى كنت فى إحدى المرات أتحدث نفس الحديث الذى لا أهمية له مع تلك المرأة، فى فترة كانت هى فيها صورة أمينة.

ـ إذًا ما الذى تضعينه؟

ـ "لوسيون" وكريمات التى أحضرها أنا بنفسى.

ـ وأيضًا تأخذينها يا شابادا . أجابت خانيا .

ـ عليك أن تعرفى حضرتك، لأننى من جوادا لاخارا . بدأت المرأة فجأة، تحكى لى، بدون مقدمات . وهناك أنا أستخدم بعض الكريمات، أنواع من الصابون واللوسيون، وأشياء كثيرة أخرى والتى دلتنى على تحضيرها صديقة لعماتى وزوج تلك السيدة،

والـذى كـان ألمـانيًـا، كـان قـد عـمل فـى شـبـابه بـوصـفـه كيميـائيًـا فـى مـعـمل لمسـتحـضـرات التـجـميل ببـرلـين. وعـنـدمـا جـاء إلى المكسـيك، فـتح ورشـة للـحـدائـد فـى جـوادا لاخـارا، وتـزوج صـديـقـة عـمـاتـى. ولـو رأيت حضـرتك كم عدد الكتب التى عنده والتركيبات شديدة الروعة التى بها، لكن ما حدث أننى أنسى الوصفات. ومعقدة، على الذاكرة لم أحترس أبدًا فى ملاحظتها، ومر زمن لم أعد بالفعل أستخدم تقريبًا شيئًا. وما أن رأيتهـا ـ أضافت بفتور مكتئبة ـ لا أستطيع أن أنظر بتـركيـز فى بشـرتـهـا الشـديـدة النظـافـة والنـعـومـة. وبالنسبة لى فقد أخذت تتفتح مسام الأنف.. لو رأيت حضـرتك كم هى جميلة بشـرتهـا...! حسنـًا، السنون مرت، والواحدة.

ـ ألم تستخدمى حضرتك إكليل الجبل؟

ـ إكليل الجبل؟ إننى أستخدمه، طبعًا هـو من أحسنها.

ـ و"الخالدة الصفراء هل تعرفينها؟

ـ فقط سمعت الكلام عن فائدتها، لكن لم أنجح أبدًا فى معرفة كيف تستخدم. هل تعرفين حضرتك؟

ـ نعم، فقط أن هناك طرقًا عديدة لتحضيرها، كل شىء يعتمد وبشكل خاص على طبيعة الجلد. وكما آتى بـالـتـالـى من هنـا، سـأعـمل لك نسـخـة من بـعض التـركيـبـات الـتى عـنـدى، لكى تـخـتـارى حضـرتك التى تبدو أكثر إرضاءً لك.

فى هذه اللحظة، ظلت تفكر كما لو أنها تحاول أن تتذكر شيئًا وذهبت بعيدًا جدًا، وغابت طويلاً، حتى أننى هيأت نفسى للانصراف، عندما قالت فجأة:

ـ شىء وحيد هو الرائع فى الحقيقة من أجل الرموش المختالة هو منقوع أوراق الورد لأنه، لابد أنك تعرفينه حضرتك، أحيانًا يكون اللون صارخًا فى الليل وفى اليوم التالى تصبح العيون وقد أصيبت بمصيبة، إذ تتورم بشدة، لكن ببعض الكمادات من منقوع أوراق الورد، بالكاد يكون المنقوع فاترًا، فيزيله، فورًا، فورًا.

نظرت عندئذ، فى عتمة الليل، إلى هذه الدمية بنت العشرين تبكى فى صمت فوق مخدة صلبة وباردة، وبدون قصد ركزت نظرى فى الأذنين البنفسجيتين الشديدتى التحديد والعميقتين. لا أملك أقل من أن أفكر فيما لم يقل؟ أن تكون تلك الكائنة الغريبة حتى تبكى هكذا فى منتصف الليل.

ـ حضرتك لا تبكين باستمرار، ليست لك رموش مختالة ـ وتأملت نفسى بتأن ـ لكن لو فى يوم... انظرى، ضعى فى النور حوض ماء صغير هكذا باليد مثلت حجم الإناء ـ وبه ماء حتى نصفه، وسخنيه على النار، ببطء وببطء شديد، وما أن يتصاعد الغليان حتى تضاف إليها بتلات الورد، وبعدها تغطى وتترك حتى تهدأ لفترة كافية.

ولا واحدة منا نحن ـ الاثنتين ـ لا هى ولا أنا، نحن عملنا حسابنا أنه فى الوقت الذى نتحدث فيه

بحماس شديد، أولادى جربا جيتارًا آخر وأجادا جعل البونجو يصدر صوتًا بضربات اليد وباليد الأخرى الشخشيخة، وجربا آلات الكمان فأصدرت أصواتًا غير منسجمة، أما مثل الرعد، أو التوسل، قطعنا بضربة واحدة حوارنا، يمثل هذا العنف وبشكل مذهل جدًا، حتى أننى شعرت كما لو أن هذا الانقطاع المفاجئ للحديث سيصبح الآن آتيًا من ماض بعيد.

ـ اتركوها هناك يا أولاد، اتركوها، اتركوها، اتركوا الآلات فى مكانها، لا تضربوا عليها أكثر من ذلك، لأنكما لا تعزفان شيئًا! هل تسمعاننى؟ لقد أفسدتموها كلها، وأفسدتما ترتيبها، وسختموها وأفسدتموها، وتركتما آثار أصابعكما القذرة عليها، وهى هناك تنظر ولا يهمها شىء! طبعًا! فهى لن تغرم ولا سنتابو واحد، حتى يقضوا عليها، نعم حتى يقضوا عليها كلها، كلها. ماذا يهم! لكن هى قاعدة هناك براحتها، ترغى ومبسوطة بحياتها، وقد تركتهما يمسكان كل آلاتى ويملئونها بأصابعهم، باللبان، بالريالة، ما الذى فعلته؟ ما الخطأ الذى ارتكبته أنا حتى أستحق هذا؟ لماذا حاجاتى؟ حاجاتى. نعم. ملكى، والهانم تتحدث، ولا شىء يهمها، لا شىء. لماذا؟ لماذا يا إلهى؟.

ولداى بقيا بلا حركة، مذهولين ومرعوبين من هذا الصوت المتوحش الذى حرمهما من تسليتهما. بعدها وضعا وهما خائفان فوق رف العرض الآلات الموسيقية التى كانت بأيديهما، واعترف أننى ذعرت

وارتبكت بما فيه الكفاية من ذلك الهجوم البالغ العنف وهذا الصوت المحموم وغير الإنسانى، وكان عليه أن ينتظر على الأقل وهى، الدمية الشقراء، كانت ترتعش من رأسها إلى أخمص قدميها، مرتجفة من الذعر الذى لا يمكن مقاومته وسكتت.

أعتقد أننى، بلا إرادة منى أغمضت عينى عند سماع هذه النداءات كلها التى تلفظ بها وهو يصرخ هذا الرجل.. ربما الآن فكرت بأن انفجار هذا الصوت المرعب، مثل نور جارح، هو ما جعلنى أغمض عينى عند نزول ضربة حقيقية غير منتظرة... وعندما فتحتهما رأيت بجانب الفترينة حيث كنت أتكئ عليها، قدمين تلبسان حذاءً معمولاً بشكل سيئ وقذر. وعندما رفعت عينى وجدت جسمًا بدينًا، يتشنج من الغيظ، وأن ضربا بفظاظة أو نتش الشعر، وفى صراخه يلوح بيديه ويهتز كما لو أن ذلك صادر عن شخص به مس من الجنون.. الذراعان ملتوتيان، والأسارير المقطبة، التشويهات، العينان الغامقتان. لم أعرف بشكل أفضل، فأفضل كيف كانت ملامحه، كما لو أننى بمغناطيس شد انتباهى كله، واحتفظت به فى عينى اللتين انطبقتا وضاقتا مثل عيون الأفاعى عندما تمضى لتهاجم ومنها تخرج نظرة ثلجية تخترق حتى العظم نفسه.

ولداى كانا ملتصقين بى تمامًا. وأحسست بأيديهما الصغيرة عرقانة وتلتمس الحماية.

ودون أن أقول كلمة واحدة ابتعدنا من هناك، وليس دون نظرة قبل ذلك وللمرة الأخيرة على الدمية التى ترتدى القطيفة الحمراء القانية والفم على شكل قلب. لكن هى تطلعت بالفعل دون أن تنظر. مضيت تائهة فى الأنفاق المظلمة للخوف والسخط، حتى وصلت إلى عمق الليل، حيث بكيت وبكيت فى صمت ويأس والدموع تتشربها المخدة. حتى أن نور النهار دخل عبر الستارة الخفيفة وأجدهما، فوق أرضية غرفة النوم، قطع من جيتارات محطمة وقطع من تلك الدمية الحزينة.

حفل الحديقة

توقف التاكسى أمام بيت بحديقة مضاءة بأنوار باهرة حيث تتصاعد، أصوات الموسيقى والقهقهات العالية وما لا يحصى من الأصوات.

- إنها ٣٦,٥٠ - قال السائق.

- ماذا تقول؟ قال الراكب بشكل غريب جدًا كما لو كان خارجًا من نوم عميق.

- إنها ٣٦,٥٠

- سته - وثلا - ثين ونصف؟ عن أ - ى شـ - ىء تتلك - لم حضر - تك أنا - لا أعر - ف ما الـ - ذى تخب - رنى به.

- شفت حضرتك - أجابه السائق بصوت غاضب والرجل ينظر إليه وجهًا لوجه - إما تدفع لى ٣٦,٥٠ وأنت نازل من التاكسى وإما سأضطر أن أستخدم هذين ولوح أمامه بقبضتيه.

ـ آه...! نعم. أنزل، نعم. حضرتك خلقك ضيق (هِبّ) ستهجم عليَّ، أكيد.

وبدأ الراكب عندئذ البحث فى جيوب حقيبته بعد أن بحث فى جيوب بنطلونه حتى وجد عملة ورقية مكرمشة وهى التى أعطاها للسائق، وفتح باب الأوتومبيل وتعثر أول ما وضع قدميه على الأرض، وبجهد هائل استعاد توازنه واتجه عبر الحديقة نحو مدخل البيت.

ـ اسمع يا أخينا، باقى الحساب معى هنا! ـ صرخ السائق، لكن ذلك الرجل الطويل، والنحيل، غير الأنيق، ابتعد وهو يتطوح فى محاولته للتوازن من جانب إلى آخر كما لو كان دمية بحبل سائب.

ـ الدعوة من فضلك، أيها الفارس ـ طلب منه ذلك الشاب الذى يمسك بالدعوات عند الباب ثم يعيدها لأصحابها.

ـ الـ ـ د ـ عوه؟ الـ (هِبّ) د ـ عوه؟ دعـ ـ وتى، تقـ ـ ول حضـ ـ ر ـ تك أنا لم تكـ ـ ن لدىَّ أ ـ بدًا دعـ (هِبّ) وات، ولا بـ ـ طاقات. تعـ ـ رف حضـر ـ تك. أنا الـ ـ وحيد الذ ـ ى جيو ـ به خالية، وهذه الـ ـ ساعة أشعر ـ بألم شديـ ـ د ـ هذا الـ ـ ألم الذى...

ـ تفضل واعطنى الدعوة، أيها الفارس ـ ترجاه الشاب، لكن الرجل النحيل كان بالفعل قد دخل إلى الصالة تاركًا الشاب يكلم نفسه.

وجد الصالة مضاءة بشكل أقوى إبهارًا ومكتظة بالحضور. نساء متأنقات ترتدين فساتين بتقويرة صدر شديدة الاتساع أو بظهورهن عارية وتغطيهن الجواهر والحلى من رءوسهن حتى الأقدام؛ ورجال يرتدون البدلات الفراك أو الإسموكنج، من أناس شديدى الصرامة وأثرياء لطاف فى معظمهم.

والرجل النحيل، وعديم العناية بما يرتديه شعر بعدم الراحة من الإسراف فى الأنوار، والدخان الذى يلهب العينين بشكل لا يمكن احتماله، أخرج منديلاً متسخًا ومرره لعدة مرات على وجهه. بعد ذلك كوره واحتفظ به صائحًا:

- صباح الخـ - ير على كـ - ل واحد!

والذين وجدوا أنفسهم قريبين منه استداروا نحوه ونظروا إليه بسخرية واستنكار الدون لا أحد. لم يخطئ من علق بأن "نعم لقد طلع الصبح مبكرًا جدا على الفارس". عندئذ أطلق الرجل قهقهة مدوية لم يكن باستطاعته أبدًا أن يطلقها من قبل على مر السنوات الثمانية والأربعين التى عاشها.

- لا تهت (هب) موا. فذلك لـيـ - س له أية (هب) أهمية بالنهار - أو باللـ - غيـر - مهـ - م (هب) وما قلته هـو (هب) صباح (هب) سعيـ - د. وهـذا ما قـ - لته لأننى - أعـ (هب) رفه. أنا أ - عرفه...

ومن هذه اللحظة، هتف رجل فى منتصف العمر بصوت خفيض حتى لا يسمعه أحد. لقد نبهتك

بوضوح أن تحاول لمناسبة خاصة جدًا أن تأتى مرتديًا بدلة محترمة. وانظر كيف تبدو، بهيئة فى غاية البهدلة! أنت تعرف ذلك جيدًا، يا روخيليو إن هذه كانت الفرصة، وربما هى الفرصة الوحيدة التى أجعلك تحضر فيها عند دون رامون وعند دون ثيزار روبيو. أن تحصل على دعوة كان ذلك انتصارًا أم أنك تحب أن تنهى أيامك بهذا الوضع البائس، بمرتب تعيس لا يمكنك أن تحصل منه على أى شىء، بعد الخدمة التى كان علىَّ أن أقوم بها من أجلك... عما أمتدحك؟ من قدراتك الإدارية، نزاهتك، وسلوكك الذى لا غبار عليه... والآن أنت تعرض ذلك كله للضياع بحضورك كصعلوك، كما لو أنك مجرد واحد سكران قليل الشأن.

استمع روخيليو إلى التوبيخ كما لو أنه موجه إلى شخص آخر، دون أن يخص نفسه. وفجأة أدرك شيئًا من كل ذلك الذى قاله له صديقه وهز رأسه كما لو أنه يحاول أن يفيق.

ـ الدون بيبى ـ ريكو كان قد أعطا ـ نى جر ـ عة صغيـ ـ رة جرعه وا ـ حده قبل أن أغيـ ـ ر البد (هب) له. نعم. لكى أأتى، جر (هب) عه صغيـ ـ رة لا أكـ ـ ثر وأقـ (هب) سم لك بـ الأم المقد ـ سة، كأس واحدة لكى تمنحنى القوة.

ولكى ترى إذا كان شخص ما يقول لى دون...

ـ لذلك فأنا أرى، أنها لم تكن جرعة صغيرة

فقط، لقد شربت حتى الـ rico نفسه، لكن دعنا (نخلع) من هنا، فلا أحب أن يتحدثوا أكثر فى حقك.

ـ إلى ـ أين ستـ ـ أخذنى يا ـ أو ـ سكار؟

ـ إلى الحديقة، هناك موائد، وربما، بقليل من الحظ نستطيع أن نجد واحدة منعزلة وظريفة/ منفردة حيث يغفلون عنا.

ـ الـ ـ حديقة ـ وهل ستـ ـ كون هناك ثيـ ـ ليـ ـ نا؟

ـ يمكن أن تكون.

ـ لكن... هناك ـ با ـ بين (هب) وإذا خر ـ جنا من وا ـ حد، أحسن ثيـ ـ ليـ ـ نا ـ تد ـ خل من (هب)...

ـ امش، هيا.

ـ أوسـ ـ كار. إلى أي اتجـ ـ اه. هل مـ ـ ن هنا؟ ـ سأل روخيليو فريسة لقلق هائل.

أوسكار مشى أمامه، والموسيقى والضوضاء الشاملة لم تسمح له بأن يسمع صديقه. وسؤال روخيليو ظل بلا إجابة.

ـ ماذا قلت ـ لى عن اتجـ (هب) ا هنا. من فضـ ـ لك ـ طلب منه وقد اختفى تمامًا ـ إن لم تقل لى عنها لن أستطيع أن أقول لك عن ثيلينا ـ وعاد يشرح له وهو خائف:

ـ من فضـ ـ لك. اعطنى العنوان... أنا لا أعرف العنوان. ثيلينا أنا لا أعرف أين أنا ولا أعرف أين أنت الآن، لقد فقدت الاثنين عنوانك وعنوانى: أوسكار

قاسى وغير رحيم، لم يقل لى فى أى مكان أنا ولا فى أى مكان أنت. فى أى مكان نحن يا ثيلينا؟...

كانت الحديقة وسط أنوار مصابيح ملونة بين أغصان الأشجار وشمعدانات تخلق أضواؤها جوًا خياليًا. أيضًا كانت هناك أشجار مكسوة بشرائط ملونة من التى يترامى بها الناس فى الحفلات وأخرى مذهبة ومفضضة والتى بها أضواء مصابيح والتى تعطى تأثيرات موحية. بعض الموائد وجداها موزعة حول حوض السباحة، الذى بشكل متعمد لم يكن به أنوار ما. ومن فوق منصة كانت الفرقة الموسيقية تعزف بشكل صاخب. الإيقاعات الأكثر شعبية لتلك اللحظة.

أوسكار راح وجاء وهو يجر روخيليو ويبحث عن مائدة أكثر خصوصية، حتى ظهرت له واحدة تتفق وما يريده. جلسا وحرص أوسكارعلى جعل روخيليو يبقى مراقبًا للمشهد وفقط يظل وحده أمام تلك الحديقة مترامية الأطراف. وعندما اتخذا مكانهما بالفعل، لاحظ أوسكار مندهشًا أن هناك دموعًا فى عينى صاحبه:

ـ لكن، يا رجل! أفى سنك هذا... هيا نشف عينيك.

وفى (من أجل) هذا الوقت، وبدون عزاء كبير من أوسكار، كل العالم كان قد اقتحم الحديقة التى أخذت تشغل بها الموائد أو تتهيأ لشغلها.

ـ أعتقد أن علينا أن نعمل فى تشكيلة حول الماء . علق مع آخر، شاب كان هناك قريباً منه.

ـ وطبعاً أيضًا عرض الخلاسيات المطليات بلون البلاتين.

ـ يقولون إن دون رامون سيطلق كلابه فى ال suly...

ـ هذا العجوز دائمًا يرتدى عادة أغطية من الدرجة الأولى.

. لا أستطيع أن أنكر أن ذوقه رفيع، وومثل الآخرين رائع جدًا يتبع ما يحبه.

ـ هل تعرف حضـ . رتك أين هـ . ى ثيليـ . نا؟

ـ يا سيد إن ما أعرفه أنا فقط هو أين كئوس الويسكى والبرنسيسات، ماذا تريد حضرتك واحد أم واحدة؟

ـ أنا أريد أن . تقول لى . أين هـ . ى ثيليـ . نا . ثيـ . لينتى.

ـ هيا يا راجل، اشرب هذه الكأس فى صحة ثيلينا . ووضع كأسه فى اليد المرتعشة للسكران.

بقى روخيليو للحظة كما لو أنه لا يدرك ودون أن يرى كأس الويسكى، بعد ذلك، وفجأة، تجرعها دون أن يترك ولا قطرة بها . أنا لا يجب أن أشرب؛ لأنك لا تحب ثيلينا التى أشرب ما تقوله وأثمالى... لكن أنا لا أشرب يا ثيلينا، كأس واحدة فقط أو اثنتين، ولن يمر

شىء على لسانى الذى كثيرًا ما ورطنى. ولا يكون عندك أهمية ثيلينا تلك الليلة فكرت أنك ستعودين مبكرًا.

ـ أهنئك يا صديقى، بأنك تلعب بحنجرتك، واحد ويسكى آخر وستمضى ثيلينا إلى عمق النسيان.... والشاب المتألق ذهب ليحيى بعض الفتيات اللاتى دعونه من مائدة أخرى.

قدم أوسكار سيجارة إلى روخيليو الذى أخذها بشكل آلى:

ـ لا شىء هنا (هب) لنشـ ربه. صاح بغضب. ليأتوا لـ ـ نا بشىء نشـ ـ ربه ـ شىء (هب) لنشـ ـ ربه. نعم. أنا أر ـ يد أن أشرر ـ ب، أشرر ـ ب...

ـ اهدأ! أمره أوسكار ـ لأن العرض سيبدأ الآن.

كل الأمور تتساوى ثيلينا كما كنت تقولين .

لا شىء قد تغير خفك الأخضر الذى أهديته لك فى عيد الميلاد تحت السرير، الغرفة والبيت كله تملؤه أشياؤك بعطرك الموجود فى كل النواحى لكنك لست موجودة يا ثيلينا، ثيلينا أين أنت... زو ـ رى (هب) ناشف، ناشف وأنا بالفـ ـ عل لا أستـ ـ طيع لا أن أتـ ـ كلم، نعم، لأن لا ... ما هذا المكا ـ ن (هب) حيث لا يوجد من يأ ـ تون لنا فـ ـ يه بشىء نشـ ـ ربه؟

ـ روخيليو! سيطر على نفسك، من فضلك، أنا وضحت لك، فكر فى السخرية التى ستحدث منا عندما سيأتون ليخرجونا من هنا.

ـ ما الذى يريد السادة أن يشربوه؟

أخذ أوسكار كأس ويسكى وروخيليو أخذ كأسًا آخرى، لكنه قال فى نفس اللحظة.

ـ أنـا لا ـ أر ـ يـد أن أشـ ـرب. أر ـ يـد أن تـأ ـ خذنى إلى ثي ـ لينا، ثيلـ ـ ينا لأن ثي ـ لينا راحت. ـ وعندما قال ذلك تغير صوته حتى وصل إلى أن يكون نحيبًا ـ ثيلـ ـ نيا راحت. حضـ (هب) رتك، هل تعـ ـ رف؟ ثيلـ ـ ينا راحتـ يا ثيلـ ـ ينتى. وفى هذه اللحظة وقع روخيليو بجسمه كله وكرسيه فوق سيدة ثرية ومثقلة بالحلى والجواهر وبالإضافة إلى أنه لم يستطع.

ـ هل تقـ ـ در تغـ ـ نى أغـ ـ (هب) نية؟

ـ لقد أحرقت فستانى ـ تعالت الصرخة من المرأة نفسها، التى حسبت أن روخيليو أطفأ السيجارة فى الجونلة القطيفة.

ـ الـ ـ أغنية التىُ عن جنـ ـ ونها؟ تمـ ا (هب) ما حضر ـ تك عشيق لـ ير ـ را (هب) تا!.

ـ إنه لا يطاق، إنه لا يطاق! إنه يبهدل فستانى بشكل دائم، وفستان مثل هذا! هذا غير ممكن، هذا غير ممكن.

السيدات التى كن يشاركنها المائدة وأخريات كن جالسات بالقرب منها، التففن حولها وهن يطلقن ألف تعليق بصوت مرتفع ويتهامسن فيما بينهن فى الوقت

الذى تعزف الفرقة الموسيقية، ميلودى، بالإيقاع شديد الاصطخاب والحشد مشعث الشعر إلى الحد الذى يغطى فيه الشعر الوجه تمامًا، ويمكن القول بحق إنها تعزف بلا تعقل - فستانى، فستانى!.

- لكن أية مصيبة، مجنونة، فستانك جميل جدًا!.

- وثمنه غالٍ جدًا، أنت تعرفين يا عزيزتى، أنه لا يقل عن محلات بالين ثياجا. لقد أحضره رامون من باريس عندما وجده يناسبنى.

- أنا لم أظن أبدًا أنه من بالين ثياجا. من الواضح أنه يمكن رؤيته.. على بعد فراسخ، لأنه فستان رقيق، لكن هنا فى المكسيك توجد حاجات بالغة الجمال، ولا حاجة لطلبها من تشابا ريلى، أو كما تقولين!.

- محلات بالين ثياجاغالية، بالغة الغلو. ورامون أمرهم أن يفصلوه خصيصًا من أجلى وراحوا يفصلونه ليتفق مع لون عينى وشعرى... وانخرطت فى البكاء.

- أية غلطة تعتبر فى ارتكاب هذه الأمور، إنها جريمة، جريمة حقيقية!.

- مثلما تلحقين الأذى برافائيل أو ليونادرو...

- عم تت - كلم هذه (هب) السمي - نه - تساءل روخيليو موجهًا السؤال إلى صديقه دون أن ينتبه إلى أن أوسكار احمر وجهه تمامًا من الخجل.

ـ نعم، يا عزيزتى، كما يقولون فإنها جريمة حقيقية!.

ـ يجب استدعاء البوليس...

ـ لـكـ ـ ن لمـ ـ اذا تـصـ ـ رخ تـلك المـ ـ رأة. لمـ ـ اذا (هب) تتـ ـ وجع

ثيلينا أنا أعرف أنك تحبيننى حقيقة ثيلينا كم تحبيننى أنا أعرفه أنا نفسى أعرفه عندما تغطينها معى؛ لأننا ليس معنا مال دائمًا المال الملعون أنا أقول لك... تنزلين بالفستان الرمادى الذى أحبه وجدًا "وبعد حكيت لى ذلك" أنا سأقول لك إن... كم كانت ثيلينا جميلة فى أمسية يوم الأحد تلك ففى المساء لا أنسى ما يثير الشبهة بشدة فأنت دائمًا جميلة وكنت جميلة جدًا... لن أتأخر بعد أن نتكلم... وأنا لم أحب أن تخرجى تلك الليلة أنا فقط أحب لكن أنت... أنا أحببت أن أقول لك... سأعود الآن... بالكاد أعطيتها قبلة على الخد لا تتركينى ولا أن أقبلك فى فمك أنت ستكرمش فستانى اتركنى حتى لا تفسد المكياج وفقط لوحت بتلويحة الوداع بيدك وظللت أنا أنتظرك أنتظرك يا ثيلينا أين أنت يا ثيلينا، أين أنت.

ـ دائمًا فى كل ناحية بالدنيا هناك كائنات هكذا من الرعاع، ناس من الذين لا الواحد يعرفهم ولا يعرف من أين يخرجون علينا، والذين لم يوجه لهم دعوة أبدًا.

ـ لكن لو أن هـ ـ ذه المرأة هى نفـ ـ سها، نفـ ـ س (هب) المرأة! قل ـ لى يا أوسكار من تلك المـ ـ رأة الفضـ ـ يحة القـ ـ بيحة والسمـ ـ ينة لو (هب) نعم، هذه السمـ ـ ينة الشديدة ـ القبح؟

وأوسكار الذى لم يكن يعرف أين يخبئ نفسه وطلب من الرب أن تنشق الأرض وتبتلعه، رد عليه:

ـ إنها زوجة دون رامون، إنها صاحبة الحفل التى تستضيفنا، جميل ما فعلته! لماذا يا ربى، لماذا تجلب على نفسك العار والبخت الأسود .

ـ أنا لا أعرف ـ ها ولا أر ـ يد أن أعـ ـ رفها ـ أتعـ ـ رف يا أوس (هب) كار لم تعـجـ ـ بننى أبـ ـ دًا، أبـ ـ دًا فى حيـ ـ اتى التعيـ (هب) ـ سة لم أعجـ ـ ب بتلك النسوة الشديدة (هب) السمـ ـ ينة. هذه الزعطة الملـ ـ عونة، والصرخات أيضًا فيفى تنتظرك وهى شديدة الحزن لو رأيت كم هى حزينة وكم تحس بالوحدة دون أن تخرجى بها للتنزه يوم بعد يوم ودون أن تأكل لأيام عديدة كلى يا فيفى... ثيلينا ستأتى غدًا لتراك أنا حاولت، وحاولت أن أخفف عنها ولكن المسكينة الكلبة الصغيرة البالغة الصغر البالغة الصغر أنت دللتها كثيرًا نعم أكثر منى، أليست هذه هى الحقيقة؟ أنت لا يمكنك أن تنكرى أن المسكينة فيفى معتادة على عادات سيئة. تنظر لى بعينين شديدتى الحزن وتستمر وهى تنظر إلىَّ يا ثيلينا تنظر بعينين شديدتى الحزن شديدتى الحزن حتى أننى...

المنوعات التى تقدمها النسوة السود تبدأ ... والشابان القريبان من مائدة أوسكار وروخيليو استأذنا هما فى الجلوس إلى مائدتهما. وافق أوسكار بشكل لطيف:

ـ بكل سعادة، فى خدمتكما، تفضلا اجلسا ـ لكن بينما كانوا يتبادلون الترحيب بحضورهما، فكر هو، فريسة لليأس، إنه الآن فتح على نفسه أبواب الجحيم.

ـ أتعرف حضـ ـ رتك (هب) ثيلـ ـ ينا؟

ـ ليست لدىَّ الرغبة.

ـ ثيلي ـ نا بالغة الجـ ـ مال (هب) لد ـ يها عينـ ـ ان زرقاوان (هب) والشـ ـ عر نعم الشـ ـ عر أسـ ـ ود أسـ (هب) ود وأسـ ـ نانها شديدتى الـ ـ بياض. لها عيـ نان زرقاوان مثل زر ـ قة الفجر كما يقـ ـ ول الـ (هب) مايسترو لا ـ را. ولـ ـ ها جسـ ـ م أجـ ـ مل. نعم يا سـ ـ يدى أجـ ـ مل (هب) هذا ما أقو ـ له أنا لأ ـ ننى أعر ـ فه عاريًا من ـ أى شىء (هب) مثل أولئك ـ وأشار إلى الخلاسيات الملونات بلون البلاتين ـ عار ـ ية من أى شىء لأنها امرأتى، هل تـ ـ عرف حضـ ـ رتك؟ لـ ـ ها شعر أسـ ـ ود أسـ ـ (هب) ود وينزل حـ ـ تى تحت الكتـ ـ فين ويتـ ـ موج.. ؟؟؟؟؟ مثل كيف يتموج شعر ثيلينا ـ والـ ـ عينان (هب) زرقاوان، شديدتا الـ ـ زرقة مثل واحدة ترا ـ لالا لا لا لا!.

ـ الآن أنت فى حالة جيدة يا روخيليو والأفضل أن تتفرج على المنوعات.

ـ هل ترغبان فى تناول شراب ما يا سادة؟ واحد ويسكى، كونياك، جن وشىء منشط؟

ـ أنا سأشـ ـ رب ما سيأتى لـ ـ كن ثيلبنا ـ تقـ ـ ول إننى.. اسمـ ـ ع حضـ ـ رتك..

وجذب كم الشاب الجالس بجواره ـ ثيـ ـ لينا (هب) هى الأ ـ جمل من هذه (هب) المرأة المرتدية فستان أبـ (هب) يض إنها لا تستحق أن توضع بجو ـ ارها ثيلينا ـ ثيـ ـ لينا (هب) لـ ـ ها شـ ـ عر أكثر سو ـ ادًا والـ ـ عينان أكثر زر ـ قة لكن ثيلـ ـ ينا راحت راحت... هل تعـ ـ رف حضـ ـ رتك؟

ـ نعم، طبعًا، الآن أعرف أين أقضى وقتًا طيبًا.

ـ لكن هى ـ كا ـ نت ثيلـ ـ ينتى ـ وعاد ليجذب الشاب الآن من طية صدر السترة.

ـ هناك ثيلينات كثيرات حيثما أردت، لو كنت مهتمًا ستجدها بعد توجهك إلى ثيلينا، ثيلينا أين أنت أيام وليالى وأنا أنتظرك أسابيع طويلة دون أن أنام أو آكل أين أنت يا ثيلينا قولى لى من فضلك هل تعرفين يا ثيلينا أنا سوف أقبض مرتبًا محترمًا وسأشترى لك حاجات كثيرة، كثير من تلك الأحذية ذات الجلد اللماع والتى تحبينها جدًا، وسوف أكون غنيًا، وعليك أن تعرفى يا ثيلينا أننى سأكون غنيًا جدًا فى الحقيقة.

ستكون عندك كل الفساتين التى تريدينها فى الليل أتنصت على خطواتك وأنت تصعدين السلم وضحكتك وسأشترى لك مئات من زجاجات العطور آلاف من زجاجات العطور أمشى ساعات وساعات وأنا أبحث عنك والآن لم يعد لدىَّ أحذية ولا أرجل وأنا أبحث عنك فى كل النواحى فى المتنزهات، وعند أبواب الخروج من السينما لكن أنا أعرف أننى سأجدك يا ثيلينا، فيفى ستموت إذا لم ترجعى وأنا أيضًا وأنا بالفعل لا أعرف من يحمل أكثر الوجهين حزنًا إن كانت فيفى أم أنا سأفعل ما تريدينه، سأغسل كئوس الخمر، التى كم كرهتيها بشدة سنذهب إلى الحفلات وسأشترى لك بيتًا مثل هذا محاطًا بكثير من الأشجار والزهور وحمام سباحة وسآخذك إلى السينما أيام الأحد والخميس وكل يوم لو أحببت لأننى سوف أكون غنى جدًا وعندى الأموال أكوام وعندى أوتومبيل تحت أمرك دائمًا فى كل الساعات أسمع صوتك تدللين فيفى وتذهبين لتهدى فستانًا أحمر مثل هذا الذى ترتدينه عندما تعارفنا كم من المرات تعالى التصفيق وكم تعالت ضجة تتى آثار ضجة هائلة، ثيلينا أنا أريد أن أكون وحدى معك عن أن أكون مع نساء مرعبات جدًا فليذهبن ويتقطعن أشلاءً، أشلاء كثيرة ويجب أن أكنسهن بمكنسة لكننى بالفعل ليست لدىَّ مكنسة أكنس بها البيت طوال الأيام لكى تجديه نظيفًا، أنا أراك وأنت تسيرين تهزين مؤخرتك، دعينى أراك دائمًا وأنت تسيرين وتضحكين وتضحكين بقهقهات

كما تعرفين مبدية أسنانك أنا لا أحب أن أراك غاضبة ولا حزينة المياه لها لون شديد القتامة ولا تظهر فى عينيك أنا أقضى الساعات وأنا أتأته السماء هناك توجد أعين كثيرة لك وبيتنا يثير فى نفسى الخوف، يثير فى نفسى خوفًا هائلا وأنا وحيد لكن كم هى صاخبة تلك الضجة، لماذا الضجة صاخبة وناس كثيرون حيث أنا ثيلينا أين أنت...

ـ أر ـ يد أن أشـ ـ رب، هل تسمعوننى؟ أشـ ـ رب. أشـ ـ رب.

ودون أن ينتظر أكثر قام ومضى يترنح قبل أن يتمكن أوسكار من أن يوقفه وجعل روخيليو يتفادى الموائد بصعوبة بالغة، وبكثرة، حتى إن أوسكار لم يشك فى أنه سوف يقع مرتميًا ببطنه على واحدة منها، ومع ذلك، لم يحاول بالفعل أن يتبعه وقرر أن يتركه لمصيره، وعلاوة على ذلك، فقد فكر أن يجد الكأس وأن يعيدها. إلى أين أكثر من هذا سيستطيع أن يذهب فى هذه الحالة؟

روخيليو مضى يتعثر فى كل خطوة حتى أبعد مكان قبالته من الحديقة، مكث لفترة غير قصيرة مستندًا على الجذع السميك لشجرة، وهو ينظر إلى حمام السباحة محدقًا فى مياهه، التى تنعكس متذبذبة عليها أنوار الفوانيس المعلقة بين فروع الأشجار، وهى تحدث فى داخل المياه أشكالاً لا نهاية لها.

هناك حيث تختفين منى إذ أنك تحت تريننى وأنا أتألم وأتألم حتى لا أستطيع بالفعل أن أختبئ من

عينيك الزرقاوين فى غيمة المياه تضحكين تضحكين من أننى لا أفعل ولا أنا قادر على أن أجدك لكن الآن أعرف لو أننى فى هذه الساعة أنك هناك فى العمق مستلقية وعارية تنتظرين وتضحكين وثغورك السوداء متناثرة فى المياه، والأسماك تدخل وتخرج تجرى فوق جسدك كله دون أن تتعب فوق نهديك وفوق بطنك تلعب فوق هذا الجسد، الذى هو لى لوحدى لى لوحدى لكن اسمعى ما أقوله إنه لن يكون للأسماك ولا للمياه التى تحيط بك وتخفيك مياه ملعونة التى تغطيك والتى تحول بينى وبينك و تبعدك عنى وعن جسدك الذى هو لى لوحدى اسمعينى لا للأسماك ولا للمياه لى فقط، لى لى.

ودخل المياه هذا الذى أصابه الجنون بين الصرخات وتعالى التصفيق، وظهرت بعض فقاقيع وتموج سطح المياه لمرة واحدة لم يرها أحد.

جـريسيلدا

وقفت الفتاة الشقراء مترددة للحظات أمام البوابة الموارية، لكنها قررت فى النهاية أن تدخل. ومازال استغرابها للإهمال الذى شمل الحديقة كلها، حيث إنها أمكنها بالكاد أن تسير عبر أدغال الحشائش التى أفسدت كل شىء، حتى الطريق المؤدى إلى البيت، والذى أمكنها رؤيته فى العمق بين الأشجار العالية، والنباتات نمت بشكل عشوائى. وبلا شك أنه قد قضى زمنًا طويلاً لم يحدث فيه تشذيب لتلك النباتات. وشمس الرابعة عصرًا كانت لافحة تعشى البصر، وكان على الفتاة أن تضم يديها كحافة القبعة أمام وجهها لتتمكن من أن تمر. وطائر اندفع طائرًا عند مرورها فأفزعها. والسويتر الأسود ظل مشتبكًا بين الفروع الشائكة لشجرة ورد قشتالية، إلى أن انتزعته بكل حرص حتى لا يتمزق، فخلصته وحملته على ذراعها. وشعرت بالاستياء بعصبية؛ لأن عليها أن تخترق هذه الحديقة بطريقة غير تقليدية بالمرة، لكنها

لم تستطع مقاومة الرغبة فى معرفة هذا البيت القديم الذى تراه دائمًا، مغلقًا ومن المحتمل ألا يكون مسكونًا، عندما كانت تمر عليه فى طريقها إلى مكتب بريد سان خيرونيمو فلذلك، لو كان باستطاعته أن يجتذبها لمغامرة صغيرة، لكان ذلك شيئًا جديدًا على الأقل. شيئًا يكسر إذا حدث ولو للحظات قصيرة رتابة حياتها فيقلل من سماعها للمراثى الأبدية النائحة من أمها، بذلك فكرت الفتاة الشقراء عندما وصلت إلى ضفة البركة التى تحجبها النباتات والأشجار. امرأة ترتدى أيضًا رداءً أسود لقيتها جالسة على دكة تحت ظل شجرة حور. أول ما اكتشفتها، فكرت الفتاة فى أن ترجع، لكن المرأة انتبهت لوجودها، بسبب خشخشة الأوراق الجافة الساقطة.

ـ عفوًا يا سيدتى، أن دخلت هكذا، لكننى لم أستطع مقاومة الفضول لمعرفة هذه الحديقة التى أثارت فضولى بعزلتها وهجرانها.

ـ منذ سنين وهى مهجورة، وأنا الوحيدة التى آتى من حين لآخر، لكن لا تمشى، ابقى قليلاً من فضلك لنتحدث، اجلسى حضرتك.

ترددت الفتاة وأرادت أن تختلق عذرًا ما "سيكون من غير اللائق ألا أقبل بعد أن دخلت هكذا..." وجلست بجوارها على طرف الدكة.

وهى تقدم نفسها بشكل واضح قالت المرأة التى تضع نظارة سوداء بعدسات سميكة:

ـ أنا اسمى جريسيلدا.

ـ وأنا مارتا ـ أجابتها الفتاة، وبدأت تتطلع إليها بطرف عينيها، لابد أنها بلغت الخمسين عامًا أو أكثر. فالشعر أشيب، ومازال يحتفظ حتى الآن ببعض خصلات سوداء. وهى لا تستعمل مكياجًا، والنظارت تحول دون التقدير الحقيقى لملامح وجهها. ومع ذلك، تستطيع أن تلفت النظر بكونها كانت بالفعل امرأة جميلة، امرأة لابد وأنها كانت رائعة الجمال.

ـ الإنسان يعود دائمًا للمكان الذى له ذكريات فيه ـ قالت جريسيلدا ذلك، كما لو أنها تحاول أن تفسر لم هى موجودة الآن فى هذه الحديقة المهجورة.

ـ هذا حقيقى ـ أجابت مارتا ـ فنحن ـ كما تقول والدتى ـ تلح فى التفتيش عن ذكريات بابا وهو الذى مات منذ مدة قصيرة.

ـ كم بكت عليه.

ـ أمى غير قابلة للعزاء، وتحب أن نأتى مبكرًا هنا، حيث كنا نقضى دائمًا الإجازات، والذى كان بابا يحبه كثيرًا. لكن أكثر من أى شىء آخر، أنا أعرف أن ماما تحب أن تكون بعيدة عن المدينة، وعن كل الناس، هل تعرفين حضرتك أننى أحيانًا أخاف أن تكون هى...

ـ نعم، إنه لشىء قاس وبالغ الصعوبة تحمل ذلك النوع من حالات الفقد.. أنا أعرفه.

ـ أنا أيضًا أحسسته بقوة بالنسبة لبابا، لكن... أنا لَدىَّ آمال، مشاريع، خطط، وعلى العكس، هى...

ـ كل شىء ينتهى مع مرور الزمن، لا شىء يبقى، ولا أحد. أنا أيضًا فقدت زوجى.

لم تعرف مارتا على الفور ما الذى تقوله لها، متأثرة بتلك الدرجة للصوت المرتجف والباعث على الحزن الغامر، الذى تشى به الكلمات. تذكرت ليلة أن اتصلت بها بنت عمها، لتخبرها بأن ريكاردو مات فى نيويورك. كل شىء قد توقف فى هذه اللحظة كما لو كان الزمن والحياة نفسها قد توقفا بضربة، فقد وقع عليها الخبر وقع الصاعقة فتحطمت، دون أن تعرف ماذا تفعل، فيم تفكر... توقفت حينئذ فى صمت طويل بعد الذى قد وقع وحاولت أن تجد مبررًا:

ـ خطيبى الأول مات. مات بشكل مفاجئ. لقد عرفنا بعضنا منذ كنا أطفالا ووقعت الضربة المروعة.

ـ هو أيضًا مات عندما كنت أصغر من أن أصدق. لقد كان وقتها شابًا مكتملا ونحن أحببنا بعضنا بشكل رائع.

ـ هل مر على ذلك وقت طويل؟

لم تسمعها جريسيلدا. كانت مازالت غائبة عما حولها. ثم قالت فجأة، كما لو أنها رجعت من مكان بعيد، وخلعت بيدين مرتعشتين ميدالية:

ـ سوف أريك صورته.

وعندما فتحتها، وجدت مارتا صورتين مصغرتين بلغتا حد الكمال بشكل واضح: صورة لرجل، وصورة لجريسيلدا. والاثنان كانا فى شبابهما وكانا جميلين، وفوق ذلك كله كانت هى بعينين واسعتين لهما لون غريب، أزرق، رمادى، أخضر.. لون لا يمكن وصفه، دخان أزرق مخضر. والشعر فاحم ينسدل على كتفيها صانعًا إطارًا بيضويًا تمامًا، والعينان زائغتان لدرجة أن مارتا لم تستطع التوقف عن إبداء إعجابها بهما.

ـ زوجان جميلان، والصورتان دقيقتان جدًا.

وأحسست بأن شيئًا، بداخلها، سبب لها ألمًا وهى تتأمل المرأة الآن.

ـ كان هو بالغ الجمال. حتى أن النساء فى الشارع كن يتلفتن ليتطلعن إليه.

ـ وأنت أيضًا يا سيدتى، وأى عينين فوق الوصف عيناك، بلون لم أر مثله فى عيون أخرى. هذا ما قالته مارتا وهى تعيد إليها الميدالية.

ـ وهو أيضًا كان مسحورًا بهما.

ـ هل حدث ذلك منذ زمن طويل؟ ـ وعندما أكملت مارتا سؤالها توقفت؛ لأن هذه كانت المرة الثانية التى سألتها عنه.

ـ نعم، مضت سنوات. كنا هنا فى هذه الحديقة، حيث كنا نأتى لنقضى الصيف، أيامها كان من يعيشون هنا قليلين جدًا، ولم تكن هنا طرق للسيارات، وكان

الواحد يشعر بأنه فى الريف تمامًا، بعيدًا عن المدينة.

ـ وهذا ما أشعر به أنا الآن، مقطوعة الصلة بشكل تام عن أصدقائى وأشغالى، فى وحدة تصيبنى بكآبة مزعجة.

ـ لقد كنت سعيدة جدًا فى هذا المكان. لن أنساه أبدًا.

ـ أما أنا فعلى العكس. لقد عانيت عذابًا حقيقيًا، وليس لدىَّ ما أفعله، ولا إلى أين أذهب، أسمع على مدار اليوم نواح ماما المتواصل، وأراها وهى تنتحب دون عزاء. وأحيانًا لم أكن أتحمل أكثر من هذا، وأشعر باليأس من كونى لا أستطيع أن أفعل شيئًا، لا شىء بالمرة... لذلك أخرج فى وقت العصارى، أنتهز فرصة نومها القصير بعد الغداء، وتلك هى الساعات القليلة التى ترتاح فيها، لأنها تقضى الليل ساهرة تطوف بأرجاء البيت وهى تنهنه باكية. وعندما أخرج أذهب إلى مكتب البريد وأترك الخطابات، التى أكتبها لخطيبى الموجود فى ميريدا.

ـ مسكينة يا صغيرتى! هذا عبء ثقيل عليك وفى مثل سنك أن تمرى بمثل هذه المواقف. عندما يكون الواحد عجوزًا، يعيش بالفعل مع ذكرياته، يطاردها راغبًا فى استعادتها، كما لو أنها صارت أجزاءً من شىء وانكسر ويريد أن يعيد تشكيله.

أصغت مارتا إليها وهى تتكلم وفكرت فى الظلم الذى تعرضت له أمها معها، والحكم عليهابهذه الوحدة

غير المعقولة. الآن لديها بالفعل ما يكفى فيما يتعلق بأبيها، ونظرت إلى البركة التى غزتها وانتشرت فيها زنابق الماء.

ـ لذلك السبب نفسه لم أجد الحماس لبيع هذه الحديقة. فهنا رأيته لآخر مرة، وهنا بقيت أشياء كثيرة.

ـ أبى مات فى المكسيك، لكن ماما قالت إن لنا فى هذا المكان ذكريات جميلة للغاية، كما إننا، علاوة على ذلك، لا نريد أن نري أحدًا...

ـ الشىء الوحيد الذى أتمناه أن أبقى هنا، مع ذلك...

ـ ألم يرجع أحد أبدًا يعيش هنا؟

ـ أبدًا لا أحد. وفقط فى أوقات العصارى مثل هذا الوقت الذى أهرب فيه دون أن ينتبه لى أحد.

ـ لابد أنها كانت بالغة القسوة تلك السنوات.

قالت المرأة بصوت متقطع:

ـ لا يمكنك أن تتخيلى حضرتك كم كانت قاسية؛ عندما رأيته ميتًا فكرت أننى من المستحيل بالفعل أن أعانى أكثر من هذا، وبعد ذلك...

ـ لم يكن بإمكانك أن تنسى، وأنه مع مرور الزمن، ستكون الذكرى أقل إلحاحًا وتخف شدة الألم؟

ـ لا، سيكون ذلك مروعًا أكثر من كل شىء، ولا يمكن القبول به، بل هو بحث متواصل عن الذكريات.

عن أشياء صغيرة مثل رائحة، صوت، أو كلمة. أشياء تشكل داخل الواحد منا هذا الذى راح، إنه الشىء الوحيد الذى يبقى لنا، الوحيد الذى يسندنا ويساعدنا على مواصلة الحياة.

ـ وهذا أيضًا ما تفكر ماما فيه.

ـ كثيرًا ما أعود هنا لأرجع مستهلكة، وتقريبًا ميتة. ولذلك فهم لا يتركوننى لأجىء إلى هنا، كل مرة، أجدد كل ما مضى تلك العصرية، وأسمع كلماته فى الوداع، وأراه وهو يرحل.

ـ هل كان بعيدًا؟

ـ لا. إلى مدينة المكسيك فقط، على بعد مسافة يقطعها بالحصان. كان فارسًا رائعًا. تلك المرة... تلك المرة قضيت العصرية هنا إلى جانب هذه البركة وأنا أتسلى بالتطريز حتى حل الليل، بعد ذلك صعدت إلى البيت؛ لأعد العشاء فى انتظاره. بدأت تمطر، تمطر بشكل عاصف كما تمطر دائمًا فى هذه الناحية. وهو لم يعد.

أخذت الشمس تختفى، وانقضت العصرية. ونظرت مارتا إلى ساعتها خفية، كانت الساعة قد وصلت إلى السادسة، ولابد أن أمها قد استيقظت من نوم القيلولة، وتنتظرها الآن فى قلق شديد. أبدًا لم تتأخر هى عنها هذا القدر. ولكن، كيف تذهب الآن؟ لا يمكنها أن تقطع حديث السيدة.

ـ كنت مضطربة جدًا كما لم أكن أبدًا هكذا من قبل، فى حالة عصبية غير عادية، كما لو أن شيئًا

سيحدث. دقت الساعة العاشرة، ثم الحادية عشرة، كنا قد سخنًا طعام العشاء مرات عديدة، هو لم يصل واستمرت وهى تمطر، تمطر دون توقف...

الريح رطبت المساء وهى تحمل عطر الياسمين ونباتات سلطان الجبل، وغسق تمدد فيما بين الأشجار الطويلة.

ـ السماء السوداء شققتها البروق، ولم أسمع صوت ركض حصانه. هذا الركض الذى أعرفه حتى فى الأحلام. انتظرت فاقدة الصبر، كل مرة أكثر قلقًا وانشغال بال يقطع نياط قلبى. وفجأة دخل الخدم به، وكان غارقًا فى دمه.

وتقطع صوت جريسيلدا غارقًا فى انتحاب هز كيانها كله. وأخذت مارتا تتأملها وهى مضطربة جدًا. تمنت أن تكون فى هذه اللحظة قد رجعت إلى البيت ومع أمها. تمنت ألا تكون قد دخلت أبدًا إلى هذا المكان.

بدأت تشتد رائحة الياسمين وسلطان الجبل لتمسى أكثر قوة، بقدر ما كانت شبيهة فى شدتها، وراحت توغل فى الظلمة وجو الكارثة، مثلما الليلة نفسها، والأشجار والمياه اسودت فى البركة. وقالت جريسيلدا وهى تحاول أن تسوى فستانها إلى حد ما:

ـ الحصان ارتاع من الصاعقة، فارتطم بالشجرة.

والشىء الوحيد الذى أمكن لمارتا أن تقوله:

ـ يا له من شىء مروع!.

ـ فى تلك الليلة قررت أن أقتلع عينىَّ.

ورفعت منديلها إلى فمها لتكتم صرخة.

مارتا أيضًا فكرت فى ارتكاب أعمال عديدة تلك الليلة، عندما علمت أن ريكاردو مات فى نيويورك، ترمى بنفسها من النافذة، تأخذ أقراصًا، تندفع أمام مرور القطار...

ـ فى هذه اللحظات يفكر الواحد فى ارتكاب أفعال غير معقولة. وهذا أمر طبيعى.

ـ اقتلعت عينى، ورميتها فى البركة حتى لا يراهما أحد بعد ذلك ـ قالت جريسيلدا وخلعت النظارة وغطت وجهها بالمنديل لتنهار باكية بلا صوت.

وهكذا بدت دقائق أو قرون، أبدية، بينما الريح تحرك أوراق الأشجار فكانت كما لو أنها بكاء طويل مصاحب لها.

ولم ترغب مارتا فى هذه الساعة سوى الهروب فى أقرب وقت ممكن من هذه المرأة، ومن الحديقة المأسوية التى صارت أشباحًا والعطر الكثيف الذى يغمرها.

ـ لابد أن أنصرف، يا سيدتى، لقد تأخر الوقت كثيرًا ـ قالت وهى تقف على قدميها وتلمس برقةٍ كتف جريسيلدا ـ لابد أن أمى مشغولة علىَّ.

توقفت المرأة عن البكاء ورفعت وجهها، وعندئذ أخذت مارتا تتأمل فى الوجه الذى تغير شكله بفعل

الألم، وفى الفجوتين الكبيرتين الغائرتين، بينما عينا جريسيلدا، مئات، آلاف الأعين، زنابق فى البركة، تحولن إليها، إلى أحداق، لا حصر لها، خضراء، زرقاء، رمادية، وبعد ذلك، أخذت تطاردها وهى تظهر من كل ناحية، كما لو أنها تحاول أن تحاصرها، وتنقض عليها وتفترسها، عندها جرت وهى يائسة، لتوسع من خطواتها بين هذه الأشباح الحية لهذه الحديقة.

الصيف الأخير

كانت لابسة فستانًا من الشيفون بكرانيش حول الرقبة وعلى الأكمام. والشعر كستنائى غامق، ملموم للخلف بشريط القطيفة السوداء، تاركة فسحة لوجه شاب بأسارير متناسقة، فى الوقت الذى تبرز فيه العينان اللتان تظللهما رموش طويلة. وهى لا تشع فقط شبابًا ونضارة هذه الشابة/ الفتاة لكن سلامًا عميقًا وسلام. لكن هذه الشابة الجميلة، لأن هذا فى الحقيقة ما كانته، والتى كانت مرتبة مثلها، وتتنفس بعمق من كل مسامها.. كانت داخل برواز موضوعة فوق التسريحة، قريبة من المرآة. هكذا كانت فى الثامنة عشرة قبل أن تتزوج، ولقد أراد بيبى أن تعطيه كهدية صورة فى عيد الميلاد، وقد خرجت جميلة جدًا، نعم، فى الحقيقة. ولقد عانت ألمًا شديدًا عند مقارنتها بالشابة التى فى الصورة، بالصورة المنعكسة لها فى المرآة، صورتها هى: صورة امرأة ناضجة، سمينة، بوجه مرهق، ذابل؛ حيث بدأت تلاحظ

التجاعيد، وقلة العناية أم الأفضل أن نقول قلة العناية بكل ما يخص شخصيتها: الشعر البيضاوى الأشيب، لبسها لأحذية بكعب واطئ، وفستانها المستهلك، وموضته بطلت. لا أحد سيفكر أن تلك التى كانوا ينظرون إليها خلف الواجهة الزجاجية لاستوديو التصوير قد صارت هى، نعم، هى، عندما كانت روحها ممتلئة بالغرور والخطط، بعكس ما هى الآن...

ـ ماذا جرى لكِ يا ماما؟ ـ سألها ريكاردو؛ لأنها كانت جالسة وقد خبأت وجهها براحتيها.

جالسة هناك فى مواجهة التسريحة، وحيث كان عليها أن تهيئ نفسها للخروج. وغيرت وهى مثقلة بمشاعر الإحباط فستانها وضبطته على جسمها. "واضح أنه ليس من الممكن الإحساس بالرضا والنشاط عندما تزداد الأعباء أكثر من اللازم وتعرف الواحدة أنها ليست بالفعل امرأة بل شبحًا، وشبحًا سوف يقضى عليه واحدة واحدة بشكل بطىء..." والآن عليها أن تغطى فمها بالمنديل لتخنق انفجارها فى الانتحاب؛ لأنها فى الفترة الأخيرة تحس بأنها حساسة أكثر من اللازم وحزينة وما أسهل أن تنهار باكية.

حدث هذا فى أوائل الصيف. فى هذا الصيف الذى ما من نسمة طرية فيه، والخانق، والذى بدأت تحس فيه بأنها فى حالة سيئة. وأحيانًا كانت تحس أول ما تستيقظ بنوبة شديدة من الغثيان، وأحيانًا أخرى تحس بسخونة تصعد فى هبات إلى رأسها، أو

نوبات دوار شديدة، كما لو أن الغرفة وقطع الأثاث تتحرك وهى تلف بها، ونوبات الدوار فى حالات عديدة تهاجمها طوال اليوم، أيضًا فقدت شهيتها للطعام، ولم تعد تشتهى شيئًا. وكل طعام أصبحت نفسها تعافه، وبحساباتها، فإنها قضت الأيام الماضية دون أن تأكل وعلى فنجان قهوة فقط أو كوب عصير كانت تمضى يومها. وتعب لا حدود له استولى عليها ولم يعد ممكنًا بالنسبة لها أن تنجز ما عليها من أعباء يومية، وهى التى دائمًا ما كانت تظل تشتغل فى البيت من الصباح حتى الليل، كامرأة زنجية. كل ما تقوم به الآن كان يتم بجهد شديد، جهد كل يوم يتزايد عما سبقه "حتى غطى العمر كله" هذا العمر الذى صارت كل النساء خائفة كثيرًا منه والتى هى على وجه الخصوص ترى أنها بلغت نهايته، جدب، شيخوخة، سكوت، موت... الأيام تمر، وتوعك صحتها زاد إلى الحد، الذى جعلها تقرر الذهاب إلى الطبيب. ربما حدث لها شىء مع أقل ثقل تلك المرحلة الصعبة.

بعد أن قام الطبيب بالكشف عليها وفحصها بدقة، ربت على كتفها وهنأها... ستكون أمًا من جديد... لم تصدق ما سمعته "لا أصدق أبدًا، ولكن مع سنوات عمرى، فكرت بأنه كان... كما يقال ستكون هناك أعراض لـ... لكن، كيف يكون ذلك ممكنًا، يا دكتور؟" وكان عليها أن تسأله عدة مرات إن كان متأكدًا من تشخيصه، إذ أنه من النادر أن يحدث ذلك فى عمرها هذا. "ذلك هو، يا ابنتى، لا أكثر، اتبعى

نصائحى وتعالى لأراكِ خلال شهر، لا يجب أن يكون عندك خوف، لو اعتنيت بنفسك، كل شىء سيتم بشكل طيب. طبعًا سأراكِ، وأنا فى انتظارك خلال شهر. كتبت لكِ روشتة ببعض الأدوية والتى لابد أن تتناوليها. أما هى فخلال أيام وأيام، ولا تزال لعدة ساعات قبلها، كانت تبكى فقط لتفكيرها بأنها وقد بلغت ذلك العمر المزعج والذى فيه عاشت الأمومة، والنضارة والنشاط انتهيا الآن، وعندما استقبلت الخبر، لم تجرب أى إحساس بالفرح، بل على العكس إحساس كبير بالارتباك وهمود شديد، لأنه عبء ثقيل، بالطبع، أن تعود بعد سبع سنوات ويكون لديها طفل آخر، عندما يكون لديها بالفعل ستة أبناء، فضلا عن أن الواحدة ليست فى سن العشرين، ولم تعمل حسابًا لمن ستعينها مقابل لا شىء، وعليها أن تقوم بشغل البيت كله وتدبر احتياجاته بمصاريف شحيحة. وتكلفة ذلك كله تتصاعد يومًا بعد يوم. وهكذا راحت تفكر وهى راكبة فى سيارة النقل فى عودتها إلى البيت، بينما كانت تتطلع إلى الشوارع، التى بدت لها مثيرة للحزن مثل المساء، مثلها هى نفسها. لأنها بالفعل لا تريد أن تعود لتبدأ مرة أخرى، زجاجات الرضعة، كل ثلاث ساعات، وغسيل الأقمطة طوال اليوم وساعات السهر، عندما تكون لا ترغب فى شىء بالفعل سوى فى أن تنام، تنام، تنام طويلاً، لا. لا. هذا لا تستطيع أن تكونه، فليس لديها القوة ولا الصبر لتقوم برعاية طفل آخر. ويكفيها تمامًا أن تصبر على ستة

أبناء وبيبى، شديد الجفاف، وشديد الاختلاف "لست سخيًا معك، يا ابنتى، لا أفقه شيئًا من الحياة، وليس لدىَّ طموحات والشىء الوحيد الذى أفعله سوف يكون أن أملأ بطنك بالأبناء نعم، طفل آخر أكثر وهو لن يبذل أقل جهد أكثر من ذلك للبحث عن عمل آخر وكسب نقود أزيد والمهمة جدًا بالنسبة لها والتى تعمل معجزات فى تدبير إنفاقها أو أنها سوف تموت من الإجهاد.

فى تلك الليلة أبلغته بالخبر، كان الأطفال قد ناموا، وهما كانا فى الغرفة يتفرجان على التليفزيون مثل كل الليالى بعد العشاء. مرر بيبى ذراعه حول كتفيها وطس خدها بقبلة "كل طفل يأتى ومعه رزقه، طعامه وملبسه. لا تشغلى نفسك، سنخرج من هذه الزنقة مثلما نخرج دائمًا". وهى ظلت شاخصة إلى شاشة التليفزيون؛ حيث كان هناك شىء يتحرك دون إحساس به، بينما كان هناك فى داخلها يتصارع عالم من الأفكار والأحاسيس.

ومرت الأيام، والأسابيع، واستمرت دون صبرها على المكروه، ولا الأمل. وجع يتزايد مع الأيام وشحوب شديد أجبرها على أن ترقد، فى أوقات مختلفة، وفى مرات كثيرة أثناء النهار. وهكذا قضت الصيف.

وفى الليالى، وقليلا أثناء النوم كان بيبى يسمعها أو يحس بها ترتعش، لكنه بالكاد يقدر كونها لا تنام. وكان طبيعيًا أن بيبى قد ارتاح من الهم، طبعًا! فهو لا يدرك ما الذى يعنيه أن يخرج للنور ابن فوق الآخرين،

ولا كيف يعتنى به، "الأبناء جائزة، هبة" لكن عندما يكونان فى الخامسة والأربعين وعندهما ستة أطفال، فطفل آخر فوقهم ليس جائزة، وليس سوى عقوبة، لأنه بالفعل لا تتوفر من أجله لا الطاقة ولا الهمة لمواصلة المشوار.

أحيانًا تنهض فى منتصف الليل وتجلس قرب النافذة، هناك فى الظلام، تسمع صوت الجنادب تحت فى الجنينة الصغيرة، حيث تجمع منها الخضراوات، ويفاجئها الفجر بالعينين المفتوحتين لا تزال واليدين المتشنجتين من الكرب.

وكان عليها أن تذهب إلى الطبيب فى نهاية الشهر، وبعد ذلك، تواصل. غير لها قليلاً من الأدوية التى وصفها لها، لكن على دائمًا أن تتبع نصائحه نفسها. "حاولى ألا تتعبى نفسك كثيرًا، يا ابنتى، استريحى أكثر، وهدئى نفسك.". عادت إلى بيتها وهى تسير بتثاقل.

وفى واحدة من تلك الليالى والتى لم تذق فيها النوم والحر وضيق التنفس جعلاها تنهض وتتمشى، وخرجت لتتهوى بهواء منعش وأمسكت بدرابزين السلم الذى ينزل من الغرف إلى الجنينة الصغيرة. وصلت إليها رائحة الليل، التى ما أكثر ما كانت تحبها، لكنها الآن تبدو لها نفاذة بشدة، ونفسها تعافها، كانت ترقب بشكل مختلف اليراعات، التى تضىء فى الظلمة وتنطفئ وتتكاثر ليليلا بالتماعات صغيرة قليلة وقصيرة، عندما أحست بشىء ساخن وجيلاتينى بدأ

ينزلق جاريًا بين فخذيها. نظرت تحتها ورأت فوق الأرض غصن خشخاش منزوع الأوراق. وأحست بجبينها غارقًا فى عرق بارد. وبساقيها وقد أخذتا تتراخيان، وشددت قبضتها على درابزين السلم بينما انطلقت صارخة على زوجها. وبيبى نقلها إلى السرير وجرى ليستدعى الطبيب. "لقد نصحتك كثيرًا بألا تتعبى نفسك، يا ابنتى، وألا تجهدى نفسك كثيرًا". قال الطبيب ذلك وعندما انتهى من تنبيهها وربت على كتفها بتربيتات خفيفة. "حاولى أن تنامى، غدًا سأحضر لأراكِ" وقبل أن تسقط فى النوم، طلبت من بيبى أن يلف الدماء المتجلطة فى أوراق جرائد وأن يدفنها فى ركن من أركان الجنينة الصغيرة، حتى لا يراها الأطفال.

كانت الشمس قد ملأت الغرفة عندما استيقظت، وكانت قد نامت ساعات طويلة. وأطفالها كانوا قد ذهبوا إلى المدرسة دون أن يثيروا ضجة، وبيبى أحضر لها فنجان قهوة باللبن ومعه خبز لتأكله باستمتاع. كانت جائعة، وعندما خرج بيبى ليجىء بأخته لتلازمها بضعة أيام حتى تستعيد عافيتها، بقيت هى تفكر ولم تستطع على الأقل أن تجرب أعظم ارتياح من أنها قد خرجت من هذا الكابوس المرعب. ولقد تألمت طبعًا أنها تبدو بشكل محزن كثيرًا، شديدة الكدر، لكن الأمور لا تجرى حسبما يشتهى البعض، ولا ما يفكر فيها، لكن حسبما تسير هى. وطبعًا هى لا تريد طفلا آخر. لا، كانت قد

تفوقت على نفسها، لكن ليس هكذا، وألا يكون قد حدث هكذا. هكذا مما أثر فيها وحرك عواطفها. وأخذت تبكى بلا عزاء، لفترة طويلة حتى ظلت مستغرقة مرة أخرى فى النوم.

وفى أيام قليلة عاد كل شىء إلى طبيعته، وقامت بواجباتها فى خدمة البيت، كما كانت تقوم بها دائمًا، مراعية ألا تجهد نفسها أزيد من اللازم، عاملة على أن تظل مشغولة طوال اليوم، وهكذا فإنها لم يكن لديها الوقت بأن يأخذها التفكير وأن تعاودها نوبات اللوم. وجربت أن تنسى كل شىء، وألا تتذكر ذلك الصيف المريك، الذى فى آخر الأمر كان قد انتهى. والذى تقريبًا كانت قد انتهت منه حتى كان ذلك اليوم الذى طلبت فيه من بيبيتو أن يجمع لها بعض حبات الطماطم. "لا يا ماما، لأن هناك أيضًا توجد ديدان.".

بدأ الطنين يتصاعد فى أذنيها، وقطع الأثاث كلها والأشياء وأخذت تدور من حولها، وبدأ نظرها يغم وكان عليها أن تجلس حتى لا تقع من طولها. كانت غارقة فى العرق والقلق ينهش أحشاءها. بالتأكيد أن بيبى، البطىء الحركة كما هو دائمًا، لم يحفر الأرض بشكل كافٍ، ومن هنا... لكن أى شىء مرعب، أى شىء مرعب، الديدان تخرج، تخرج،...

فى ذلك اليوم بصعوبة جهزت الطعام وقد انتهت منه أو كان مالحًا أو نصف نيئ، أو محترقًا إذ إنها بدأت تدور فى دوامة من الأفكار وتهالك مخيف.

كل حياتها، والروتين اليومى تغيرت بضربة واحدة، إذ أخذت تتجه إلى أن تكون عصبية جدًا، فريسة لقلق فظيع، تفرش السراير بشكل سيئ، وتخبط الأرض بالمكنسة خبطات عديدة، تجرى وتطل من النوافذ المطلة على الجنينة الصغيرة، وبدأت تنفض الغبار من فوق قطع الأثاث، ومرة أخرى من على النافذة، ونسيت كل ما كانت تعمله، وعند مسح الأرضية تترك بركًا. وبدأت توقع الأشياء من يديها، تحطم الأوانى الخزفية، وتلتقط بسرعة الكسر وتلقى بها فى إناء القمامة حتى لا يراها أحد ويشك فيها؛ تقضى ساعات طويلة متعلقة بالدرابزين، وهى تراقب، وتراقب.

بصعوبة تتكلم مع بيبى والأطفال الصغار، كل شىء يضايقها: ما يسألونها عنه، ما يتحدثون فيه، ما يثيرونه من ضوضاء، الراديو الذى يفتحونه، الألعاب التى يلعبونها، فرجتهم على التليفزيون... هى تريد أن تكون وحدها، تفكر، تراقب... ألا تتسلى، هى فى حاجة لأن تكون متنبهة، وهى تصغى، وهى تراقب، وهى تصغى، وهى تراقب.

فى هذه الليلة، ذهب بيبى إلى وسط البلدة كى يشترى حذاءً/ أو إلى صالون الحلاقة. والأطفال الثلاثة الأصغر سنًا ذهبوا للدرس الدينى ككل يوم سبت. والأطفال الأكبر للعب كرة السلة. فكانت فى وحدتها تحاول بلا جدوى أن ترفو الجوارب، وترقع القمصان والبنطلونات، الأمور التى كانت تجرى من قبل بمهارة وبسرعة بينما تتابع هى فى التليفزيون

مسلسل يوم الأحد البيع بسعر مخفض الذى كثيرًا ما أحبته، وفوق كل شىء مسلسل حنين "... لكن ذلك لم يعد ممكنًا بالفعل، وبالنسبة لها لم يعد يسليها شىء، ولا ما كانت تسمعه ولا ما تراقبه، كانت متنبهة، تراقب، وتنصت، وقرب الساعة السادسة مساءً، نجحت فى أن تحس بما يشبه احتكاك خفيف. شىء يتسحب فوق الأرضية بالكاد تلمسه. بقيت هادئة دون أن تتنفس،... نعم. ليس هناك أقل شك.. أولئك هم.. وهم يقتربون، يقتربون، يقتربون ببطء، كل مرة أكثر، كل مرة أكثر، وعيناها اكتشفتا ظلا خفيفًا تحت عقب الباب... نعم، إنهم هنا. لقد وصلوا. لم يعد هناك وقت ليضيع أو ليكون للرأفة. جرت إلى المائدة، التى كانت فوقها لمبة جاز من البورسلين القديم والتى كانت لوالدتها والتى احتفظت بها كشىء أثرى، وبيدين مرتعشتين عمدت إلى إفراغ محتويات اللمبة من الجاز وراحت تسكبه من فوق الرأس إلى القدمين حتى بقيت مبتلة به تمامًا. وبعد ذلك، وبالفائض منه، رشت ما يحيط بها، ثم دائرة ضيقة حولها، ومع ذلك فقبل أن تشعل عود الثقاب، نجحت فى أن تراهم وهم يدخلون بصعوبة شديدة خلال فتحة ضيقة من الباب... لكنها كانت أسرع، وبهذا فقد كسبت المعركة، ولن يبقى لهم أثر. لتكون بذلك قد أكملت انتقامها إذ لم يبق سوى كومة من الرماد الذى يتصاعد منه الدخان.

أوسكار

أعطت الفتاة الإشارة للموظف وانتظرت بصبر أن يسلموها حقائب السفر. جلست على دكة ودخنت سيجارة، ربما هى الأخيرة التى راحت تدخنها خلال الفترة التى ستقضيها مع عائلتها. عيناها عاودتا النظر باهتمام الى المكان محاولة أن تكتشف إذا كان، فى سنوات غيابها هذه؛ قد تغير شىء، لكن كل شىء ظل كما هو. وما تغير هى فقط ، تذكرت كما لو أنها ترتب الأمور منذ سفرها إلى العاصمة: الملبس الطويل الفضفاض، ووجهها المغسول وشعرها الململوم على هيئة ذيل حصان. والحذاء الواطئ، وجوارب قطنيه. الآن هى ترتدى سويتر أسود جميلاً. وجونلة قصيرة وضيقة، ملتصقة بجسدها، وحذاء أسود وبالطو بيج. واضعة مكياجًا غير فاضح وشعرها مموج على الموضه. كانت فتاة جذابة وجميلة، وهذا تعرفه هى، ومثلما يقال: نكشف الشخص بقدر ما يعرف كيف يلبس ويتأنق. والموظف حمل لها حقيبتها وقال لها:

ـ لو أحببت حضرتك، عربة البريد يمكن أن توصلك إلى البلدة، مقابل اثنين بيسو فقط، لأن عربة نقل الركاب تتأخر كثيرًا فى المرور هنا.

اتخذت الفتاة مقعدها بجوار السائق السمين لعربة البريد، وأعطته عنوان بيتها.

ـ فى بيت "دون كارلوس رومان"؟ سأل السائق وهو يبتسم ـ لقد كنت أعزف معه فى فرقة موسيقى البلدية أيام الآحاد، فى المساء. وبعدها كنت أصحبه إلى بيته. لو سمحت لى ان أتوقف عند مكتب البريد لأترك لهم حقيبة الخطابات، ولن أتأخر.

ودخل الرجل إلى مكتب البريد بحقيبة الخطابات وكانت تقريبًا فارغة.

أما هى فكان بإمكانها أن ترى من مكانها الأبرشية العتيقة للبلدة بأبراجها الرشيقة: وميدان الجيوش بكشك الموسيقى ودككه الحديدية، وبجوار الأبرشية، مكتب توثيق العقود، الذى يعمل به والدها. وبلاشك أنه منكب الآن على بعض أوراق المكتب يكتب بريشة مانجويو حروفه المتناسقة بالغة الجمال

دفعت الفتاه للسائق الاثنين بيسو المتفق عليها وبقيت للحظة، قبل أن تقرر أن تدق الباب، متأملة بيت موثق العقود، بيتها، وهى تراه من المدينة فيبدو صغيرًا ومتواضعًا، لكن هنا هو بيت جميل إذ إنه من طابقين وبدروم، من نوعية نادرة فى البلدة. النقاشة معمولة بطريقة غير جيدة، والشبابيك والباب لا لون لهم، ولا شك أن زمنًا طويلا قد مر دون أن يهتموا بالمنزل.

دقت الباب فى النهاية وانتظرت، بينما كانت دقات قلبها تتسارع.

- "مونيكا"! - صرخت كريستينا أول ما رأتها وضمتها بمودة شديدة، وخطوات الشخص الواصل تكون متباعدة، ومونيكا جرت لتعانق أمها، تلك المرأة الضئيلة النحيلة، بوجه لونه رمادى، وعينين غائرتين وبلا بريق. وهى تعانقها عملت مونيكا حسابها للنحافة البالغة للمرأة، والوجه شديد الذبول والمنهك، وضمتها برقة وألم.

- كم هو جميل أنك رجعت يا ابنتى! - قالت لها الأم، بينما كانت تمسح دمعه.

- وبابا؟ و"كارلوس"؟

- بابا فى مكتب التوثيق، و"كارلوس" يواصل عمله فى المدرسة، والآن جاءه إضافة إلى أطفاله، الطفل الخامس.

- و... أوســكار؟

- كما هو دائمًا - قالت المرأة باختصار وتنهدت. ووجهها بدا فى تلك اللحظة رماديًا أكثر، وعيناها غائرتين أكثر.

وعند دخولها غرفة النوم التى كانت تتشارك فيها هى و"كريستينا"، خلال سنوات طويلة، أحست "مونيكا" بتأنيب الضمير وألم؛ لأنها تركت أختها يصيبها الضنا غارقة فى هذا الحبس، ولم نأخذها معها عندما كانت ذاهبة إلى العاصمة. والغرفة كانت مقسمة بالتساوى: السريران من النحاس الأصفر،

بمفرشيهما المنسوجين من غزل أبيض، ناصعان، ومنبسطان، كما لو كانا مفروشين للتو ودولاب الملابس العتيق من خشب عين العصفور الذى ورثوه عن الجدة، والتسريحة بأرضيتها الرخام، وحوض غسيل الأيدى، الأبريق من البورسلين. والمكتب بشمعدانه الذهبى وشمعته الطويلة والجاهزة لتكون مشتعلة، والزهرية بأزهار الياسمين التى قطفتها "كريستينا" لتكون فى استقبالها عارفة كم تحب هى عطرها.

- "كريستينا"، يا أختى، كم أنا مستغربة لك، لا تعرفين إلى أى مدى - وكانت "مونيكا" صريحة.

فى هذه اللحظة عرفت بوضوح، أن كرستينا كانت مندهشة أكثر من أى شخص آخر، العائلة، البيت، البلدة، كل شىء. كانت "كريستينا" فارعة الطول، شاحبة، هادئة دائمًا، مجتهدة فى شغل البيت وتعانى، ومستسلمة لقدرها.

- وأنا، لا يمكنك أن تتصورى، كم!. - واختنقت عيناها بالدموع - وما كان يعزينى فقط أننى كنت أفكر بأنك سوف تعودين، لكن هل عدت لتبقى؟. ألم تعودى لتذهبى؟

- سوف نتكلم فى هذا يا "كريستينا".

- عندك حق. أنا ذاهبة لأساعد ماما فى تجهيز الأكل، استريحى قليلاً، فأنا أراك مجهدة.

و"مونيكا" نظرت لنفسها فى مرآة حوض غسيل الوجه، عندها حق "كريستينا"، رأت نفسها مجهدة،

وهذا ما كانته. الخوف من مواجهة العائلة بكل شيء، لقد كانت تحت ضغط عصبى شديد، لكنها كانت بالتحديد تقوم بهذه المجازفة، لأنها كانت فى حاجة إلى النتيجة، وأن تقترب منهم. وبدأت تخرج ملابسها من الحقيبتين، وتعلق فساتينها فى الدولاب العتيق، إلى جوار فساتين "كريستينا". قطع الملابس تلك المعلقة، بعضها بجوار البعض، تتحدث بصراحة عن النساء اللاتى تلبسنها والبيئة التى يتحركن فيها.

وفى الثانية بعد الظهر وصل الأب والأخ. والاستقبال كان قصيرًا، وباردًا، و"مونيكا" لم تكن تتوقع شيئًا مختلفًا، وعلى الفور بعدما غسلوا أيديهم جلسوا حول المائدة وصلى الأب صلاة قصيرة، كما اعتاد أن يفعل، وبدءوا فى تناول الطعام. أى طعام جميل بالنسبة لـ"مونيكا" كان طعام بيتها الذى أعد باهتمام بالغ، وعناية خاصة من أمها.

ولقد تحدثوا قليلا أثناء تناول الطعام. الأب كان مستاءً وتناوله بمزاج سيئ. و"مونيكا" لاحظته، بطرف عينها، وفى الحقيقة تقريبًا لم يكن قد تغير. ربما صار أكثر سمنة وصلعًا. لكنه استمر فى هدوئه وسلوكه المنظم ، بطيبة وترتيب، بفوطته الموضوعة حول رقبته طوال احتسائه للشوربة، مثلما كان يفعل دائمًا، وعلى الطرف الآخر من رأس المائدة، الأم تقوم على خدمتهم أثناء تناول طعامهم فى صمت. "أنها لم تتغير." ـ قالت عنها "مونيكا" "لقد انهكت تمامًا." شديدة النحول، بهزال وجهها الرمادى، وعينيها

الغائرتين اللتين لا بريق فيهما. وتبدو شبحًا أكثر منها إنسانة. و"كريستينا" غارقة فى صمتها، ووحدتها وانعدام أملها، فهى شابة عجوز. زهرة ذابلة. و"كارلوس"، غارق فى تفكيره، مقفول على نفسه، يبدو أكثر ضخامة، ويبدو أكثر سنًا من عمره الذى بلغه. أحست "مونيكا" برقة بالغة وألم شديد حيالهم كلهم وأحبت أيضًا كونها عائدة. جلبة، كما لو من أمتعة تقع على الأرض، جعلت "مونيكا" ترتجف وبقيتهم نظروا إلى بعضهم دون اندهاش.

ـ لابد وأن يكون قد انتهى من طعامه الآن ـ قالت ذلك الأم وهى تنهض من على المائدة. وخرجت مسرعة واختفت من الباب المؤدى إلى البدروم. وخلال عدة دقائق عادت وهى تحمل صينية عليها قطع من حطام الأطباق والأكواب، وكانت تلهث إلى حد ما وقد اكتسى وجهها بلون خفيف.

ـ إنه عصبى جدًا، واعتقد أنه بسبب... ـ وتركزت عيناها على "مونيكا" ـ لابد أن تعطيه شيئًا، يا بابا.

ـ وانتهى الأب من تناول طعامه بسرعة، ومسح فمه بالفوطة. وصب قليلاً من الماء فى كوب واتجه إلى البدروم. والأخ نهض من على المائدة ممسكًا ببعض الكتب وانصرف.

وفى اليوم التالى لوصول "مونيكا"، شرعت فى عمل الجانب الذى يخصها من شغل البيت، مثلما كانت تفعل قبل أن تسافر إلى العاصمة. بالروتين

نفسه دائمًا: فى السادسة والنصف كانوا يستيقظون. الأم تقدم الأكل للعصافير وتنظف الأقفاص. وعلى الأختين وضع مائدة الطعام، وإعداد الإفطار. وفى الساعة الثامنة كان عليهم كلهم الجلوس حول المائدة، لكن قبل ذلك لابد من تقديم الإفطار "لأوســكار" وإلا يقضى اليوم بحالة بالغة السوء لو لم ينتبهوا ويقدموا له طعامه أولا وهو ,من البدروم وبذكائه البالغ يعرف من الجلبة التى تحدث فى البيت متى يستيقظون، متى يدخلون إلى المطبخ، ومتى يخرجون. كل شىء. ففى الثامنه والنصف يذهب "كارلوس" إلى المدرسة والأب بعده بقليل يذهب إلى مكتب توثيق العقود. وعندئذ تنظف النسوة الثلاثة البيت بعناية. وعلى "كريستينا" تحمل عبء ترتيب المطبخ غسل البلاط، والأم عليها تنفيض الصالة وغرفة مائدة الطعام، و"مونيكا" عليها الغرف كلها والحمًّام، وخلال الوقت الذى تخرج فيه الأم إلى السوق لشراء ما يحتاجونه من أجل أكلهم، تكون البنات قد كنسن ومسحن الفناء، والطرقة. بعد ذلك عندما عادت المرأة بما كلفت بإحضاره، عاونتها "كريستينا" فى إعداد الطعام وترتيب المائدة. و"مونيكا" غسلت الملابس المتسخة، ففى هذا البيت هناك دائمًا شىء يتم عمله. وبعد الانتهاء من تناول الطعام ترفع المائدة وأدوات المطبخ، ويقمن برف الملابس وكيها، يحدث ذلك فقط بعد العشاء عندما يكون الكل قد عاد إلى البيت واستراح، والأب انخرط فى مراجعة العزف على التشيللو للقطع التى يعزفونها من. سيريناد أيام الأحد، والأخ يجرى يصحح أعمال

تلاميذه، أما النسوة الثلاث فتنشغلن بأعمال الخياطة والتطريز.

ومن البدروم يتحكم "أوســكار" فى حياة هؤلاء الناس. هكذا كانت الأمور دائمًا، وهكذا استمرت تدار. كان يأكل أولا قبل أى إنسان، ولا يسمح لأحد بأن يذوق الطعام قبله. هذا ما يعرفه الجميع. وهذا ما يراه الجميع. كان يحرك الباب الحديدى للبدروم بغضب شديد، ويصرخ عندما لا يرى الشىء الذى يطلبه، وفى عز الليالى يثير ضجيجًا ويوجه لهم اعتراضاته عندما يريدون أن يناموا وفى أحيان كثيرة أيضًا ساعة أن يستيقظ. يأكل كثيرًا، وبشراهة وبدون رغبة. بيديه بجلافة، ولأتفه سبب لا يريحه يطوح بالأطباق كلها وبها الطعام، ويخبط رأسه بالحيطان، ويراقب الباب. وفى أحيان نادرة كان يبدو صامتًا، إذ كان دائمًا يكلم نفسه من بين أسنانه بكلمات غير مفهومة.

وعندما يكون الجميع كل منفرد بنفسه فى غرفته، يخرج "أوســكار" من البدروم. ويخرج الماء من البئر ويسقى قصارى الزرع بعناية ولو كان غاضبًا، عندئذ يحطمها كلها على الأرض، لكنه فى اليوم التالى كان يعيد القصارى المحطمة كلها إلى مكانها، إذ أنه لا يتحمل أن تنقص. ودائمًا كان يجعل قصارى الزرع بالعدد نفسه. وعندما ينتهى من رى القصارى يدخل البيت، ويصعد السلم المؤدى إلى الغرف. ونحو منتصف الليل تسمع طقطقة الخشب القديم تحت

الثقل المرعب لخطوات "أوســكار". كان أحيانًا يفتح باب إحدى غرف النوم، وحالما يظهر نفسه فقط، يعود ويغلق الباب، ويرجع إلى البدروم. لكن فى أحيان أخرى يدخل كل الغرف ويقترب من الأسرة وهناك يبقى لبرهة، بلا حركة، ويلاحظ، فقط تنفسه الثقيل والقوى يكسر سكون الليل. لا أحد يمكن أن يتحرك حينئذ، كلهم يبدون متصلبين، ومشلولين أمام ظهوره. إذ أنهم مع "أوســكار" لا أحد يعرف مطلقًا ما الذى يمكن أن يحدث. بعد ذلك، وفى صمت، يخرج من الغرفة، وينزل على السلم بثقله ويدخل البدروم لينام. فى ذلك البيت لم يكن يسمح لأحد أن ينام مرتاحًا أو بشكل طبيعى، أبدًا كان نومه خفيفًا، ومنتبهًا دائمًا عند أقل جلبة. لكن لا أحد اشتكى أبدًا. مستسلمين أمام هذا المرض العضال، متقبلين قدره القاسى، كانوا يتحملونه فى صمت. وفى ليالى اكتمال القمر بدرًا، يعوى "أوســكار" مثل ذئب طوال الوقت الذى يكون فيه القمر بدرًا ويمتنع عن الطعام.

من الممكن أن يقال إن عائلة "رومان" كانت واحدة من تلك العائلات المرتاحة أكثر فى البلدة، إذ يملكون بيتًا كبيرًا وخاصًا بهم وحدهم، مكتبًا لتوثيق العقود. وابنًا مدرسًا فى المدرسة، ومع ذلك، فهم بالكاد يحصلون على الأموال التى تسدد نفقات ذلك البيت. ويقال إن أكثر النفقات بسبب أوسكار بإحلال قصارى الزرع محل تلك التى يحطمها مرارًا وتكرارًا بلا توقف. خمسة. عشرة. فضلاً عما يقال عن الآنية

الخزفية، بشكل متواصل فيشترون أطباقًا، و فناجين، وأكوابًا، علاوة على الملابس التى يمزقها حتى يحولها إلى خرق: قمصانًا، بنطلونات، ملاءات، مفارش سرير، أغطية؛ وأيضًا يحطم كراسى وقطع أثاث، ويضاف إلى هذا كله، الأدوية التى يلحون عليه فى تناولها، والتى هى غالية إلى حد كبير.

كانت الزيارات التى يستقبلها بيت موثق العقود محدودة، عائلات وحيده فقط أو أصدقاء حميميون يعرف "أوسـكار" أصواتهم جيدًا، من الصغر، والذين كان يحييهم بحرارة من وقت إلى آخر ويتناول الشيكولاتة معهم ويتبادلون الحديث لوقت قصير عند حلول المساء، شخصية غير معروفة لا تستطيع أبدًا أن تدخل هذا البيت، و"أوسـكار" لا يحتملها ولا يتسامح معها. والنسوة فقط هن من يخرجن للضرورة:

مشوار مكلفات به، من أجل المشتروات المختلفة، وقداس أيام الآحاد. ومرة خلال الأسبوع لصلاة التسابيح. مناسبة عزاء أو جنازة، أمر فى الحقيقة شديد الخصوصية، إذ إن هذه الأمور كثيرة للغاية، فهو لا يسمح لشىء بأن يكسر أو يؤخر سلوكه الروتينى اليومى لحياته وعاداته. وعندما تخرجن يبقى الأب أو الأخ فى البيت لأن "أوسـكار" يخاف من الوحدة بدرجة لا يمكن تصورها وتثيره وعلاوة على ذلك، فهناك خطر موجود وهو أن يهرب.

فقدت "مونيكا" عادة أن تنام مبكرًا وتمر عليها ساعات طويلة متيقظة، وهى مصغية للتنفس الخافت

لـ"كرستينا"، وتفكر فى أمور كثيرة، كثيرة، حتى تسمع الخطوات الصماء "لأوســكار"، وعندئذ تبقى "مونيكا" شديدة الهدوء وتغمض عينيها ليعتقد هو أنها قد نامت. و"أوســكار" يبقى واقفًا بجوار سريرها لعدة دقائق، تبدو لـ"مونيكا" لا نهاية لها، أبدية. كان يقضى الليالى كلها وهو يراقبها، ربما مستغربًا أن يراها من جديد هنا، أو يحب أن يتأكد إذ ما كانت هى. السنوات التى عاشتها فى المدينة كانت قد أنستها هذا الكابوس الذى لم تكن له نهاية أبدًا.

فى ذلك اليوم، السادس من أغسطس، كان "أوســكار" فى حالة من فقدان الصبر منذ طلوع النهار. واحدًا من الأدوية التى يتناولها، والتى تهدئه وجدها قد نفدت، والطبيب وصف له دواءً آخر ليحل محله، حتى لا يزيد تأثيره عليه. وخلال ساعات صار يصرخ، ويعوى، وينخرط فى الصراخ، محطمًا كل ما يجده فى متناول يديه فى البدروم، مقلقلاً بعنف الباب الحديدى المقفول بقفل، مطوحًا قطع الأثاث وقاذفًا بها البوابة. وكان قد طوح بصينية الإفطار، بما عليها من طعام، لم يسمع ولم يعمل اعتبارًا لأحد"إن "أوســكار" فى أسوأ أحواله." قالت الأم أول ما وصل لتناول الطعام لزوجها وابنها." أنا لا أعرف ماذا علينا أن نفعل." واصلت المرأة الحديث، وهى تعتصر يديها مختنقة من الضيق. "إنه يرفض تناول الطعام، وقد حطم كل شىء."

ودون أن تقال كلمة أزيد، جلسوا حول المائدة وسط تلك الضجة والصرخات، وأصوات العويل

والضحكات الصارخة. جلسوا خائرى القوى بسبب هذا العذاب، الذى يثقل على الروح، وبأصابعها أخذت الأم تمسح الدموع التى لم تستطع أن تسيطر عليها. ولا حتى أن تسمع الأب وهو يشرب الشوربة بصوت عال كعادته.

ـ لقد رفض أن يذوق لقمة، لم يحب أن يفطر ولا أن يأكل ـ عاودَت الأم الكلام، كما لو أنها لم يسبق لها أن علقت عندما جاء؛ موثق العقود، وابنها.

ـ لقد حطم كل ما استطاع أن يحطمه ـ علقت "كريستينا".

ـ أعتقد أنه سيكون من المناسب أن ننبه الدكتور للحالة التى وجدت عنده ـ قال "كارلوس".

الضيق نجح فى أن يكسر الصمت، الذى كان الأب قد فرضه فى أوقات الغداء، خلال سنوات عديدة.

ـ ولو من باب الاحتياط، نزيد جرعة الدواء.

ـ لكن... الأفضل له...

ـ ماذا أفعل يا "ربى"، ماذا أفعل!.

ـ أعتقد أن هذا من تأثير القمر.

ـ أو من تأثير الحر الشديد.

ـ "ربنا" وحده من يعلم، "ربنا" وحده من يعلم!.

ـ هذه هى الأسوأ من بين النوبات.

ـ عيناه محمرتان وتكادان أن تخرجا.

ـ لقد خبط رأسه كثيراً ونزف دمًا .

ـ لقد حاول أن يفتح القفل.

ـ أنا أعتقد أن الدواء هو الذى جعله بهذا الشكل.

ـ أحيانًا لا يعرف الأطباء حتى ما يكتبونه فى الروشتة.

ـ لقد كان هادئاً جداً، وفى أحسن حال.

ـ بالأمس، كان يغنى، الأغنية نفسها، طوال النهار، وطوال الليل، لكنه كان يغنى.

ـ نعم، لكن فى الليل حطم قصارى الزرع

ـ آه يا "ربى"، يا "ربى"!.

ـ أحيانًا الأحاديث الفارغة تسرق الوقت والمال
ـ قاطع الأب حديثهم ـ أعتقد أن الأحسن أن نعطيه حقنة لكى ينام، إن شاء "الله "وعندما يصحو ستكون النوبة قد مرت. أنا ذاهب لتحضير "السرنجة" ونهض من على المائدة.

ـ أنا خائفة يا بابا ـ قالت الأم واقتربت من زوجها وأخذته من ذراعه ـ خائفة بشدة.

ـ لقد حقنته فى أحوال كثيرة أخرى، ولم يحدث شىء، اطمئنى، واهدئى.

ـ الفانوس جاهز ـ قال "كارلوس". والرجلان الاثنان نزلا إلى البدروم. والنسوة بقين هناك، لا تتحركن، وقد تحولن إلى ما يشبه ثلاثة تماثيل.

تعالت صرخات غير واضحة الألفاظ، ضجة صادرة عن صراع، وعن أصوات الضربات، وعن الأجسام التى وقعت، أنات، صيحات... وفجأة توقف ذلك كله. فقط سمعن الأنفاس اللاهثة للرجلين الاثنين، اللذين استحما فى عرقهما وهما خارجان من البدروم، منهكين ومثخنين بالجراح كما لو كانا يصارعان حيوانًا مفترسًا.

ذلك المجهود الهائل الزائد عن الحد من القلب المتعب لموثق العقود، والذى توقف فجأة، فى اليوم التالى، عندما وجدوه ينسخ عقدًا فى أحد المحاضر. كان بالفعل ميتًا عندما نقلوه إلى بيته. وسهروا عليه ليلة الجنازة فى الصالة طوال الليل. وبالرغم من أنه كان رجلا محبوبًا ويلقى الاحترام من الجميع فى البلده، فإنه لم يستطع حضور السهرة على الميت سوى عائلات قليلة فقط، وأصدقاء يترددون على عائلة "رومان"، وأصواتهم عرفها "أوسكار". ألم العائلة كان هائلاً، وممزقون من الألم بقوا طوال الوقت بجانب ميتهم يبكون فى صمت. وفى اليوم التالى كان الدفن بعد أن أقاموا القداس على روح الجسد المسيحى. وفى الأبرشية والمقابر حضرت البلدة كلها. وزملاؤه فى فرقة موسيقى البلدية ودعوه وهم يعزفون له فالساته المحببة له:

أموت من حبك، والحدائق الحزينة.

ومنذ ذلك اليوم الذى مات فيه "دون كارلوس رامون" ساءت حياة هؤلاء الناس: البيت بشرائط

الكريب السوداء على الباب وعلى النوافذ. والنوافذ مقفلة، والنسوة يلبسن ملابس الحداد، صامتات فى غيبوبة أو ساهيات عما حولهن، وخصوصًا الأم التى كانت تبدو شبحًا أكثر من كونها إنسانة، شخصًا خياليًا أو شبحًا لجسم آخر، و"كارلوس" برأسه الساقط نحو الأرض يموت من الكرب ومن المعاناه، يعرف أنه سائر فى حارة مسدودة بلا مخرج. محاصر دون أى منفذ للخلاص ولا أمل فى هذه المحنة، كم تعذبوا وقاسوا وجرفهم الحزن عبر حياتهم. لقد وقع المقدور وهم ضحاياه وفرائسه وما من خلاص.

وفى الأسبوع الذى مات فيه موثق العقود، سقطت الأم مريضة. فى يوم لم تنم فيه تلك المرأة التى كانت منهكة تمامًا. ولا الدكتور استطاع أن يدخل البيت، إذ لم يسمح له "أوسكار" بذلك، فكان "كارلوس" يخبره بحالتها يوميًا، كما لو كان يقابل أمه، ويشترى لها الأدوية التى يأمر بها. لكن كل هذه المجهودات لم تكن مجدية، فتلك الحياة كانت تنطفئ بشكل بطىء، دون أية شكوى، ولا نحيب، ويمر اليوم كله غارقة فى سبات عميق، دون أن تصدر عنها حركة ودون أن تتكلم، كانت تتلاشى.

ولأيام قليلة ظلت فيها الأم على قيد الحياة، تتنفس فقط ولا شىء أكثر، لا حشرجات، ولا اختلاجات، ولا ارتعاشات، ولا صرخات من ألم، لاشىء، تتنفس فقط، ومضت لتلحق بالرفيق الذى شاركته الحياة والتعاسة، وكانت السهرة على الميتة فى

المكان نفسه، الذى أقيمت فيه السهرة على "دون كارلوس"، ودفنت أيضًا إلى جواره، وفى تلك الليلة التى دفنت فيها، مر "أوســـكار" على غرفة نومها الخالية وهو يعوى وأسنانه ينبعث من بينها الصرير.

استمروا فى قضاء ذلك الصيف المشرق والمعطر بروائح الزهور، لأيام طويلة، وليال لا نهاية لها، الأخوة الثلاثة، مغلقون داخل أنفسهم، دون أن يجرءوا على التحدث، ولا على التواصل، كما لو كانوا فى غيبوبة، وغارقين فيها بعمق كما لو أنهم مفكرون والكلمات: مستغربة أو كما لو كانوا ينتزعونها لتخرج. وكل يوم أحد، وبعد حضور القداس، تذهب "كريستينا" و"مونيكا" إلى المقابر ليحملن الزهور إلى أحبائهن الموتى. "كارلوس" يبقى فى البيت ليرعى "أوســـكار". وفى المساء تجلس الأختان لتنشغلا بشغل الإبرة بجوار النافذة فى الصالة. ومن هناك يرقبن الحياة وهى تمضى، مثل السجينات عبر قضبان زنزانتهن. أما "كارلوس" فيتظاهر بأنه يقرأ، ويتأرجح على الكرسى القش الهزاز. حيث كان أبوه ينام فى قيلولات قصيرة قبل أن يذهب ليعزف سيرنادات فى ميدان الجيوش.

هائلا كان يرى القمر تلك الليلة التى اكتمل فيها وصار بدرًا فى أغسطس، وكان الحر فيها شديدًا طوال النهار واستمر طوال الليل، وبالكاد يستطيع الواحد تحمل ملاءة على جسمه. و"أوســـكار" أخذ فى العواء كما يفعل دائمًا فى ليالى البدر. وما من أحد

استطاع أن يذوق النوم، يعوى ويكسر قصارى الزرع، يصعد وينزل السلالم، كان يصيح، ويعوى، ويصرخ، يصعد وينزل... ومختنقين بالحر الذى ظل يتزايد حتى تركوا أنفسهم وقد اشتد بهم النعاس شيئًا فشيئًا، يسقطون فى نوم أحمر، محترق، كما لو كانت نار حارقة قد اندلعت، وطوقتهم، حتى انتهت بهم إلى الكحة، كحة جافة، وملحة حتى أنهم استيقظوا، وبعيون خرجت من محاجرها أخذوا يحدقون فى ألسنة اللهب، التى وصلت بالفعل إلى الغرف صاعدة من الطابق السفلى، والدخان الكثيف والخانق الذى جعلهم يكحون، وتدمع عيونهم، ويكحون، وعواء "أوسـكـار"، الذى كان بلا شك تحت، فى البدروم، عواء وضحكات عالية، ضحكات لمجنون لم يسمعوها قبل ذلك أبدًا، واللهب يدخل، وتقريبًا لحقت بهم، لم يكن ممكننا أن يضيعوا الوقت، والسلم كانت النار، قد التهمته، وبقيت فقط النوافذ، ربطوا أطراف الملاءات ببعضها، و"كارلوس" أنزل "كريستينا"، وبعد ذلك "مونيكا"، وفى النهاية تدلى هو، وعندما كان "كارلوس" يلمس الأرض، كان البيت قد اجتاحته كله النار التى خرجت ألسنتها من النوافذ، ومن الباب، ومن كل جوانبه. ومازالوا يسمعون الضحكات التى يطلقها "أوسـكـار" عندها أمسك الثلاثة بأيدى بعضهم، وشرعوا فى السير باتجاه الخروج من البلدة. وما من أحد أدار رأسه ليرى للمرة الأخيرة البيت المشتعل.

الرسالة

أنا أكلمك...عن تلك الأيام التى فيها يختار الإنسان طريقًا فى بلد لا يعرفه ويستسلم للمناخوليا والوحدة: وعن تلك الصباحات التى تكون فيها العيون مرتابة وغير مرتاحة. عن تلك اللحظات التى أحب فيها أن أكون مأخوذة بجانبك، بينما تؤدبنى بنظام يبعدك عنى، من القلاع التى أبنيها من الرمال والتى تتهدم من هبة هواء خفيفة من الوردة التى أعطيها لك، ذابلة إلى حد ما. من المؤكد وأنك تركتها تموت فى زهرية بدون ماء. من الكلمات التى لم تقلها أبدًا، بل أقرؤها فى عينيك الصريحتين. اليوم أكلمك. اليوم الذى أملك فيه الوقت كله لكى أقوم به وليست تلك المقابلات الصحفية، التى تسمح لى فيها فقط بكلام كثيرولا تسمح بشىء منه. وأبقى مخنوقة بالكلمات والأفكار والمشاعر. من كل ما لا أعرفه ولا أستطيع التعبير عنه أبدًا. أنا أعرف أن كل لحظة لا تعوض ولا أحب أن أفقد لحظة واحدة من التى أكون فيها

بجوارك.. لكن أنت تركتها تضيع، كما تركتها تمضى السنون، أو الحياة. ربما الآن تستطيع أن تقول شيئًا، أو خلال شهر، أو خلال قرن، أو خلال لحظة. ما أهمية الزمن الذى يمر لوصار فى النهاية مثل خط متفق عليه لترتيب الوجود اليومى. حدد مكانه فى الماضى أو فى المستقبل. ربما فى يوم ما، على الأقل ما فكرت فيه، يوم تعطيه السحب الرمادية، أو يوم ممطر، تستطيع أن تحكى فيه حكايتنا بشكل جيد، لأنك لم تتركنى أبدًا أتكلم عن حقيقة لقائنا. عندك خوف ولذلك لا تستمع لى... أو أنك تتعمد التجاهل، أتوافقنى فى الرأى؟ كل مرة أبدأ فيها بالكلام عن أماكن، أشخاص، أفراح أو أحزان، عن أشياء كثيرة مشتركة أول مرة تحدث فيها القطيعة بيننا، كانت مثل جسر أمده فى الفراغ وأنت لا تريد. أنت ترفض أن تعبره، ولذلك لا تتذكر وتفهمنى أفضل، وتفهم، أنت أحسن ما تعرفه، هو ما عمق الهوة، وصل إلى أن أصاب الروح، بل وصل هناك نهر من الخوف، أو أيضًا أشكال مختلفة من الحب أو من الخوف. ومن الحب اختفت أشياء كثيرة كما لو بفعل كارثة أو بفعل إعصار هائل. أنا لم أهرب أبدًا من الحب، وذلك أنت تعرفه. أنا أتهاوى دائمًا بلا تبصر فى مياهك. واستنفده بعطش لا يرتوى أبدًا: باحثة عن جنتى. وفى هذا الإلحاح/ الرهان/ استنزفت الحياة. البروق تمزق السماء وتمحو زرقتها، منذرة بالعواصف... هكذا تعزف روحى، خيالى دائمًا منشغل. وضوح الكلام مرة فيضح/ يتسرب إلى حياتى فى لحظات فقط فى أمل

كاذب، لتسقط بعد ذلك فى ظلمة أكثر حلكة، فى فراغ بلا نهاية، فى بئر لا قاع لها. معك فقط أستطيع أن أتكلم هكذا: أسمى الأشياء بأسمائها، وأقولها: ليل، زهرة، مطر. أسميها، مثلما تكون هى أو كانت. مرات عديدة، أحكى لك وأرتفع إلى عتبات الحديث، لكن بعد ذلك يصل/ يأتى النور، والغموض كله يتلاشى كل شىء يستعيد شكله الحقيقى، تمامًا. وعندئذ أرحل الى اليوم الحقيقى الذى لا ينتهى، لا أعرف بشكل كاف أن الحب وجد، وهو موجود وأحسه فى قلبى وفى خلاياى كلها. أعرف كيف أمنحه كله بيدين ممتلئتين، لكنى أتلقى شيئًا مغايرًا، رسالة من الروح، زيت أم حطب للوقود، ليغذى النار. لم تعرف أبدًا عن هذا الحب، مستلقيًا على بطنك فوق جمراتك الخاصة، ولا حتى فى تلك الليلة، التى مشيت فيها ساخطًا دون أن تقول ولا كلمة وداع ولا مكترثًا لخطواتى الثقيلة الصماء. وفى الدموع التى انهالت بداخلى. كل شىء بدأ يتساوى فى الطريق وفى داخلك. الضوء الشاحب، الأوتومبيلات السريعة. المارة والجرائد تحت الذراع والسيجارة وقد احترقت/ استنفدت كلها بين الشفتين، كل شىء يتساوى، أيضًا المطر بتساقطه فى رتابة ربما كنت تفكر "الآن علىَّ أن أذهب لأجلس وأتفرج على التليفزيون أو أسمع الراديو، وسوف تأخذ قهوة وتدخن سيجارتك الطويلة" لكن لا. كل شىء يتساوى خارجك وداخلك. لكن خلف الباب الذى أغلقته، بقى هذا الحب الذى لا تفهمه

والذى بقى يختلق صوت خطواتك على السلم، جرس التليفون، وفى حالات غيابك أركن إلى الصمت منتظرة، أفتش عن شكل لميزة فيه، مع ذلك، فأنا أعترف لك، أنا لا أنتظر المرور المتشابه للأيام، دون أن يظهر لا خلاص ولا أمل. اقترحت على نفسى عندئذ أن أنسى الساعات، والأشياء التى تحيط بى، وكلها يقلقنى، وفقدت نفسى، مثلما فى غابة، فى قراءة ما. آه لو تعرف، كم من الليالى تخيلت أن نبلغ الفجر معًا، إلى أرض معروفة لنا حيث السلام/ السكينة تحتضننا/ نحتفظ بسلامنا. وجدت أحيانًا فيما أحب أن يجمعنا الفرح أو الحزن اللذين تمنحهما لى، لكنى أحتفظ بهما دائمًا بداخلى بخوف أن تفسد، وكلها لن تكون ممتلئة بوفرة هائلة. وعندما ألقاك أقطع الخيوط مع ماضىَّ، من كل ما يصلنى بك وأقيس خطواتى بخطواتك. إلى حيث تحب أنت. لم أحدثك أبدًا عن أوقات الشفق/ الغسق الواهنة فى الشجرة الضخمة، التى كانت أمام نافذتى. والتى أهرب من خلالها دائمًا وتأخذنى/ تصحبنى لصحبتك لمعرفة الأماكن والمواضع المحببة: حدائق وبساتين، حجرات مليئة بأشياء قديمة، لعب عزيزة علىَّ محطمة، صور للعائلة، ولكلاب، ولقطط لا يمكن أن تنسى. أيقونات، كهوف، وطرق تحفها على الجانبين أشجار الحور الظليلة، والمنتزه الغاطس مع غديره، غاطس أكثر الآن عن المنتزه القديم نفسه، قاعه صار مغطى بكثافة بالوحل والطحالب، أعشاب مائية، وشقوق خفية حيث

تختفى الأسماك، أسماك ملونة تلمع وتبرق كما لو أنها من الذهب أو الفضة، عندما يسقط عليها نور الشمس، هناك كنت أتنزه أنا وقت العصر فى طفولتى، وكنت أنصرف من هناك فقط، عندما لا أعود أرى الأسماك فى المياه الهائجة والريح التى تهب بقوة. وطوال حياتى كنت أتمشى على الشواطئ أسمع صوت البحر، وأتعرف على أعالى الجبال والوديان الفسيحة. الأمسيات البنفسجية وسماوات الخريف الذهبية. أتمشى دائمًا فى وحدتى دون صحبة أكثر من أن آمل فيها/ أنتظرها... انتظرت سنوات عديدة كالقرون، وفقط بقيت يداى خاويتين والقلب مجروح من البرد، لكل ذلك، أتكلم فقط إليك لكى أشير لك إلى الطعم المرير للحياة ونبحث عن الجمال فى كل ما يحيط بنا، ولا أرغب سوى فيما يوهب لنا ونجده فيه، الرضا الكامل: فى الانفصال عن كل لحظة، واستعادة لذتها البعيدة. وأتخلص من ألم الهجر وأواصل الحياة كنحلة تتنقل من زهرة لأخرى. أكلمك من أجل هذا كله وأكثر منه. من أجلك كى أفتح لك نوافذ مغلقة ومن اليد التى تساعدك على أن تجتاز عبر الموقف الأكثر مرارة وإيلامًا، لماذا، قل لى الآن، هل تغيرت كثيرًا؟ تصرفك فتح منافذ/ سبل/ طرق طويلة للشكوك والمخاوف. لقد سألت، ومازلت أسأل، لماذا لم تعرفه أبدًا بشكل مؤكد. لو أنه كان فقط موقفًا. أو أن هناك مرحلة أفضل، فى حياتك أو أساسًا يسند ويقوى وهو نفسه ما أكلمك عنه الآن. أريد أن أقول

لك أشياء أكثر، وهى كلها الأشياء التى سكت عنها يومًا بعد يوم، وأعرف عنك أشياء أخرى، وأخرى كثيرة، الأشياء التى أحتاج أن أوضح بها شكوكى وهذا الارتياب الذى دائمًا ما أغرق فيه. أكلمك، أكلمك، لكنك لا تسمعنى. تنظر خلال النافذة انحدار الشمس فى الغروب، وتشهد الأشجار والبنايات العالية، وتظل غائبًا، فيم تفكر؟ أنا عرفته فى مرات كثيرة، عيناك تكشفان عنه دائمًا: فترات الصمت هى بالنسبة لنا لغة صريحة حيث كل شىء مفهوم، لكن أشياء أخرى كانت مثل جناح أسود يمتد وأنا أظل غارقة فى الظلام دون أن أنجح فى اختراق تفكيرك. وهكذا مثلما يحدث الآن ولا حتى انتبهت إلى أننى هنا، بجانبك، أكلمك، وانظر إليك، ومنتظرة... لست موجودة بالنسبة إليك فى هذه اللحظة، لا فى الحضور، ولا فى الذاكرة. أنا ذاهبة. وسأتركك مع نفسك، فى ذلك العالم الخاص بك جدًا حيث لا تحتاج لا لشىء ولا لأحد لكى تواصل حياتك. مغلقًا فى دائرتك، فى برجك العاجى الذى لا يمكن اختراقه، لكن عليك أن تتأكد أنك لن تجد السلام ولا الهدوء، ولابد ستبحث عنى، كما فى المرة السابقة وتكمل الحكاية.

آه! لو أنك استطعت أن تعرف كم من المرات من العزلة بلا هدوء، تحت المطر الذى يتسرب فى سريانه البطىء فى الغياب، أو فى نهر الزئبق/ السوق الذى يجرى فى حلمى، تحت الوزن الخفيف للطيور أو فقط مع نزهاتنا المخيبة للآمال فى البحر، أعين الأسماك

بالليل، فى قلب السكون الذى يحيط بى تقطعه أصوات الريح، وظلال الماء، وعبر الليل الطويل، أحس بأننى أستعيد وجهك/ ملامحك، صوتك، كلماتك... نعم، أعرف أنه يومًا ما ستهتدى إلى هذه الصخور التى تغطيها نباتات كشه العجوز والطحالب. وتحتها سأكون هناك.

٣ شارع استوكهولم

على الرغم من أننا كنا فى الخريف، فقد قضيت وقتًا طيبًا مساء اليوم الذى مررت فيه من كولونيا خواريث إلى شارع استوكهولم. فهناك كانا يعيشان فى رقم ٣ منذ نحو شهرين أوميرو وبيتى. ومع ذلك، كانت هذه هى المرة الأولى التى أذهب فيها إلى شقتهما الجديدة. والسبب الأول الذى حدث هو مرض ماما، التى لابد أن أكون بجوارها طوال الوقت، كما يحدث دائمًا، لأن شيئًا ما أربك حالتها الصحية وهذا ما جعلنى عاجزًا عن زيارتهما. ماما من أولئك الأشخاص الذين يتوجسون من المرض بشدة، ويكرسون حياتهم فى حمل هم الجسم والروح، ولذلك إذا انتابها الإحساس بأنها غفلت ولو قليلاً، أو قصرت تسقط فى نوبات اكتئاب شديدة والتى تجعل مسألة شفائها فى وضع خطر. وبعد ذلك، من العمل لوقت متأخر والحرص على القيام به دون تأخر مما جعل الوقت يمر، ونحن أصدقاء جدًا حتى أن عوائق مثل

هـذه تبـرر أن أيامًا طويلة مـرت دون أن نـراهـمـا. وفى ساحة البروفيسا توالت دقات السادسة مساء عندما ضربت جرس ٣ شارع استوكهولم. وأنا تقريبًا مقطوع النفس؛ وصلت إلى الطابق الخامس حيث توجد شقة صديقى.

- لكن يا لها من مفاجأة سارة.

- فى النهاية تركتنا نراك.

والاثنان بدءا فى توجيه ألف عتاب على الزمن الطويل الذى كان يجب أن أراهما فيه، زمن طويل جدًا ولو على الأقل لأرى بيتهم الجديد. وأنا أحاول أن أشرح لهما كل ما قد جرى لى ولذلك لم يكن ممكنًا أن أزورهما قبل ذلك.

وإلى حد ما اتضحت الأمور، بيتى خلعت عنى البالطو وسارت بى إلى غرفة النوم؛ حيث تركته بينما كان أميرو يرينى الشقة.

- لـدىَّ منـظـر رائع. قـال ذلك فى الـوقت الـذى سحب فيه الستارة لكى أتمكن من الإعجاب بالبانوراما الرائعة التى أضفى عليها الشفق صبغة خاصة متدرج الألوان الوردية، ولون الغراء. أكدت له أن الشقة بدت لى بالغة الجمال. وكانت كذلك فى الحقيقة، بعد تلك الشقة الصغيرة، والشىء الوحيد الذى عرفته حتى هذه اللحظة، مع نافذتها الكبيرة، حيطان مكسوة بالخشب، والمدخنة، إنها من أكثر الأماكن اللطيفة والمريحة. وهما قد زوداها بقطع أثاث بذوق جميل. كنبة واسعة وكرسيان بمساند من تلك الكراسى التى

يغوص فيها الواحد بشكل مريح. دواليب برفوف مليئة بالكتب، منضدة للشغل، لوحات، مصابيح، وأشياء كثيرة صغيرة والتى يحب الواحد أن يراها ويجدها قريبة منه.

ـ الطوابق العليا لها فوائد كثيرة. استمر أوميرى فى كلامه.

كنت متفقًا معه، لكنه لم يدعنى لأبدى ملاحظة أن السلم ثقيل جدًا فى الصعود عليه، وأننى مازلت لم أسترد أنفاسى. "سرعان ما سيعتاد الواحد عليه، وعلاوة على ذلك فهو تمرين جيد للحفاظ على رشاقة الواحد ويحسن أداء الدورة الدموية.

جلسنا أنا وأميرو نواصل الحديث عن رضاه بأن يقيما فى هذه الشقة التى يكتشفان كل يوم فوائد أكبر لها، وأنه قد صادفهما حظ هائل بأن وجداها فى هذه البقعة من المدينة، والاتصال الجيد بها، كما لو كانت قد صممت من أجلهما بالتحديد، متفقة مع احتياجاتهما، وبإيجار معتدل بما فيه الكفاية، دون أى ضجيج، وحيث يمكنه أن يشتغل بارتياح.

وبيتى عادت من غرفة النوم وهى تحمل علبة "بونبون"، وصندوق صغير من السجائر وخلفها، فتاة شقراء ترتدى فستانًا أبيض، ما أن رأيتهما تصلان حتى حاولت أن أتحرك عند نهاية امتداد الكنبة لكى أفسح لهما مكانًا ليجلسا فيه.

ـ لا، لا تتعب نفسك، أنت فى مكانك أفضل، وأنا سأجلس هنا بجوار أوميرو. وقربت كرسيًا.

ـ ما رأيكما لو أخذنا واحد روم؟ ـ اقترح أوميرو.

ـ حالا ـ أكدت بيتى.

ـ تبدو لى فكرة طيبة ـ قلت أنا، الذى يجب أن أعترف كانت مذهولة بما يكفى ومرتبكة بسبب قلة التهذيب تلك، أو بأية طريقة أخرى نسمى ذلك؟ لكونها لم تقدمنى إلى الفتاة ذات الفستان الأبيض. أحسن من هذا لو فكرا بأننى أعرفها. لكن فى كل الأحوال،... سألت نفسى أيضًا إذا لم تكن واحدة من قريبات بيتى، إذ أننى أعرف عائلتها التى تعيش فى نيويورك.

ـ بالنسبة لك أنت لا تحب الروم قويًا جدًا، أليس كذلك؟ تذكر أوميرو وهو يجهز الكئوس.

ـ أنا أتركه لذوقك.

ـ وكيف حال والدتك الآن ـ سألت بيتى.

بدأت أطلعها فى خطوط عريضة على الحالة الصحية لأمى دون أن أكف عن ملاحظة الفتاة بركن عينى. والتى كانت قد بقيت واقفة أمام رف كتب تنظر إلى المجلدات فيه. وأتى أوميرو بالكئوس لبيتى ولى. وبعد ذلك أتى بكأسه وجلس. الاثنان لم يباليا بالفتاة وأنا لم أجرؤ على أن أسألهما عن أى شىء، لأن حضورها نفسه أثار الخوف فى نفسى، ولم أعرف ما الذى تفعله هناك.

ـ من بواعث السرور أنك عندنا.

ـ ونحن سعداء برؤياك.

ـ وأنا لست أقل منكما. وكيف تمضى بك الأحوال فى شغلك الجديد يا أوميرو؟

ـ جيدًا بما فيه الكفاية، ساعتان أو ثلاثة فى الصباح فقط، لا أستطيع أن أقول إن ذلك سيكون عبئًا ثقيلاً.

ـ وهل هو ممتع ما تقوم به؟

ـ أقرأ الجرائد كلها، أقص الأخبار أو الملاحظات، وأضعها فى ملف الأرشيف، وذلك كل شىء.

ـ أنت محظوظ، بلا شك، إذ أن ذلك يبدو لى شغلاً ممتازًا.

ـ الأفضل ألا يكون هناك شغل ـ قالت بيتى وهى تضحك ـ ألا ترى ذلك؟

واصلنا الحديث قليلا عن كل شىء. أوميرو وبيتى تقريبًا كفا عن الكلام. وفى الحقيقة لقد كانا بالغى الحميمية فى تلك الأمسية. وخلال ذلك، كانت الفتاة قد اقتربت من حيث نجلس وجلست على كرسى من القش، وسهل التحطم، ورشيق مثلها هى نفسها. ومن هناك كانت ترقبنا فى صمت. نظرت إلى صديقى بنظرة متسائلة، لكنهما لم يلمحا لى بأى شىء. كما لو كانا لا يريدان أن يضعاها فى الحسبان. وعندئذ فكرت إذا ما كانت من أولئك الأشخاص الذين يتجاوزون الحد فى الصداقة، وأنهما اعتادا على القلق المخيف من الأصدقاء والجيران، ومن أولئك الذين لم أعرف كيف أتخلص منهم وانتهى بكراهيتهم حتى السعار.. كانت بلا شك التى يعرفون

كيف يتعاملون معها، حاولت، عندئذ ألا أشغل نفسى أزيد من ذلك بحضورها. لكن ولا حتى هذا أيضًا جعلنى أتجاهلها، وهى جالسة هناك، بالغة الهدوء، فى صمت مؤثر.

مرات قليلة، كنت فيها غير مرتاح أبدًا مثل تلك الأمسية التى زرت فيها أوميرو وبيتىِ. فى شقتهما فى ٣ شارع استوكهولم. أنا من أولئك الأشخاص الذين لتربيتهم الصارمة وتعذيب الجسد حتى النخاع ما هو بالنسبة لحكمى أستطيع أن أصنف نفسى من العناصر الخاطئة من النماذج الطيبة أو المهذبة. هكذا الذى وحده بواسطة قوة هائلة، يحقق الصبر، ذلك العبث والموقف الباعث على الضيق وقلت لنفسى إنه فى وقت متأخر أكثر، أو عندما تكون هناك فرصة، فهما سوف يفسران لى الدوافع الخاصة وبلا شك سيقدمون لى البراهين التى لديهم لكى يتعاملوا بهذه الطريقة مع الفتاة ذات الفستان الأبيض.

ألح أوميرو على أن نتناول كأسًا أخرى، وبينما كان هو يحضرها، نهضت لتوقد المصابيح؛ لأن الدنيا بالفعل أظلمت وبالكاد كنا نرى وجوهنا. وعند مرورها بالفتاة تعثرت بكرسيها، وإلى حد ما انطرحت على الأرض: لكن ولا على الأقل لذلك راحت تطلب منها أدنى اعتذار، واستمرت كما لو أن لا شىء قد جرى، ولم أهتم بأى وجه تقابل الفتاة. ولأننى لم أجرؤ على أن أنظر إليها. والآن لو بالفعل لم أعرف أن أفكر فى كل ذلك، وقد بدأت أعانى من أجل الفتاة المسكينة

التى ـ بلا شك ـ ليس لديها أقل إحساس بعزة النفس أو الفطنة حتى تمشى فى النهاية. الناس شديدو الندرة أحيانًا.

عاد أوميرو بالكئوس وواصلنا حديثنا. ولقد حكيا لى أنهما دهنا الشقة كلها حسب رغبتهما. لأنها قبل ذلك كانت الجدران مغطاة بورق حائط مزركش غامق والذى جعلها معتمة أكثر، واضفى عليها مظهرًا كئيبًا. أيضًا وضعا مدفأة جديدة؛ لأن التى كانت موجودة لم تكن تعمل بشكل جيد. ومالك المبنى كان شخصًا بالغ اللطف، حتى أنه استجاب لكل ما طلبناه منه. حتى ولا الضمان طلبه منهما وفقط أعطياه شهرًا مقدمًا. لقد رفعا القيمة الإيجارية لأنهما لا يجب أن يسببا له ضيقًا فى التخفيض حتى يحصلا عليها فلديهما ماء ساخن على مدار اليوم، والغاز، والنور كلها متضمنة فى عقد الإيجار. وفى النهاية أوميرو وبيتى لم يحلما أبدًا بأن يجدا شقة متعددة الفوائد/ المنافع مثل هذه. ساعة البروفيسا دقت الساعة الثامنة بثمانى دقات لأجراس بدت لى حزينة. هكذا قلت لهم. بيتى أكدت أنهما ليس لديهما ما يحزنهما وأنها كلها متساوية فى كل الكنائس. عندئذ حدث عندما نهضت الفتاة وسارت متجهة إلى غرفة النوم دون أن تقول شيئًا. هكذا مثلما جاءت.

ـ لقد ذهبت فى النهاية ـ علقت فى صوت خافت جدًا، حتى لا تسمعنى هى.

ـ من التى ذهبت؟

ـ عمن تتكلم؟

ـ عنها ـ أجبت ببساطة، وبنظرة تشير إلى الفتاة التى دخلت توًا غرفة النوم، بينما أسائل نفسى ما الذى جرى لأوميرو وبيتى.

ـ أنا لا أفهمك ـ قالت بيتى:

ـ ألا تكون هى كئوس الروم؟ قال أوميرو مازحًا.

ـ لم أفكر أبدًا فى أن تكون هذه مزحة مع حضراتكما ـ وعاتبتهما ـ لقول الحقيقة كل شىء يبدو لى غريبًا.

ـ هذا ربما يكون زلة لسان ـ قال أوميرو ـ لا أحد يعرف ماذا يقول الآخر.

ـ واضح أننا نعرف، لكن الآن انتهى كل شىء مرة واحدة ـ فسرت لهم.

ـ أنت متأكد من أننا لا نعرف عمن...

ـ حسنًا، فى كل الأحوال، كانت عندكما واحدة زيادة هكذا، طوال الوقت ـ قلت لهم.

ـ عندنا هكذا، أين؟

ـ لكن، كيف تقول أين؟ هنا ـ وأشرت له على الكرسى الذى خلى من الفتاة ـ كانت جالسة ساعات وساعات دون أن تتكلم، كما لو أنها فتاة بائسة صماء. أعتقد أنها فتاة متجاوزة للحد أو غير محترمة.

ـ جالسة هنا؟ ـ علقت بيتى ـ كما لو بدون فهم، ونظرت إلى أوميرو محدقة فيه.

ـ ومن تكون؟ وما اسمها؟ ـ وجعلت أدير السؤال مع نفسى.

ـ حسنًا. القضية هى، أن ـ بدأ أوميرو يقول بينما هو يفرك راحتيه كما اعتاد لأن يفعل عندما يكون عصبيًا.

ـ إلى أين ذهبت؟ ـ سألت فجأة بيتى. وهى تقاطع ما كان أوميرو متأهبًا ليقوله.

ـ إلى غرفة النوم ـ أجبت.

ودون أن أتكلم أكثر من ذلك نهض الاثنان واتجها إلى غرفة النوم، وأنا خلفهما. دخلنا غرفة النوم ولم يكن يوجد أحد هناك. فقط رائحة قوية لزهور الجاردينيا، ورائحة ناردين. رائحة حلوة بشكل زائد ولزجة، كثيفة وقاتمة، جاذبة ومنفرة لدرجة أنه لا يمكن الكف عن التنفس، والتى تقلب المعدة فى حالة قيء لا يمكن منعها.

ـ لكن، هل تعتقد أن...؟ لو كانت الـ...؟ كانت بيتى تسأل أوميرو. وبيتى لها عينان مفتوحتان على اتساعهما وفمها يرتعش عند الكلام.

ـ واحد هو من يعرف هذه الأمور ـ علق أوميرو ببساطة وهو يواصل فرك راحتيه، فريسة لحالة عصبية هائلة.

أنا قررت أن أمشى فى هذه اللحظة. زد على ذلك العقاب الذى سأتلقاه من أمى التى بقيت وحيدة. ولقد شعرت بالتشوش فى تفكيرى بما يكفى.

بعد ذلك عرفت أن أوميرو وبيتى انتقلا من ٣ شارع استوكهولم إلى مسكن آخر فى اليوم التالى. بعدها عرفت أيضًا، أمورًا أخرى كثيرة.

عنبر النقاهة

من كثرة ما حاولت لم تستطع أن تكف عن التفكير بأن كل شىء كان قد بدأ، أو تحدد بزيارة نينا وبيللى. أنخيلينا كانت مجتهدة بشكل زائد بأن يكون البيت لديها لا ينقصه شىء ليكون كامل الأوصاف، وكل شىء تم ترتيبه بشكل صحيح بحيث يعطى الانطباع لزوج الأخت الأمريكى الشمالى، وأن يحظى برأى طيب لعائلة زوجته ولبيتها .لعائلة وجيهة للغاية، ينظر إليها وبعناية بالغة، مما كان موضع اعتراضات عديدة فى زواج بيللى ونينا.

ولعدم معرفة ـ وهذا واضح! ـ إن الأصل كانت نينا، لكن فى النهاية أبدت رضاها. لا أنخيلينا ولا عمتها استطاعتا حضور الزفاف بسبب عدم القدرة الصحية للسيدة التى تتمتع بذوق حسن مراعى للآخرين، فى تلك الأيام، وهى لم تجد ما يدفعها لأن تتركها مريضة ووحيدة. نينا كانت قد تزوجت فى نهاية العام السابق. ودائمًا يجرى فى رسائلها ذكر

سعادتها التى كانت، وحظها الطيب فى أنها تزوجت من بيللى وافتخارها بأنها أصبحت ضمن عائلته السياسية، المهذبة جدًا والوجيهة. وعندما تخبرهم نينا بأنهما سيأتيان بيللى وهى فى إجازة الصيف قبلها بشهر فقط. أنخيلينا بالفعل لم تهدأ. وتكرس نفسها روحًا وجسدًا لترتيب وتنظيف ذلك البيت القديم مصرةً على، ولقول الحقيقة، فقد كانت شديدة الإهمال، لأن عمتها تضيع الوقت حتى أنها لا تستطيع أو لا تريد أن تفعل شيئًا. وخوليا لانانا، امرأة عجوز أيضًا، وهى تكرس نفسها للمطبخ وتلتفت إلى تحقيق رغبات السيدة الكبيرة، وأنخيلينا التى تشتغل حتى الخامسة أو السادسة مساءً تدبر عدة ساعات فقط لتعمل ألف شىء. وتتأخر قليلا عن عمتها والتى تئن من حياتها التعيسة كامرأة مريضة ووحيدة.

بدأت بأن أنزلت الكتب كلها من فوق رفوف المكتبة، وأخذت تنفضها كتابًا كتابًا. وخلعت الستائر فى الغرف كلها وغسلتها وكوتها بنفسها خوفًا من أنها لو أرسلتها إلى المغسلة وفى أحسن الأحوال إما سيغسلونها بشكل سيئ أو يمزقونها.. فالمفترض أنها قديمة إلى حد ما ولذلك كان لابد أن يتم التعامل معها بعناية شديدة، لمعت المشمع وجعلت الأرضيات كلها تبرق مثل قطع الموبيليا الخشبية.. كان عليها أن تنشى الملاءات، ومفارش الأسرة.. وتنظف وتلمع الفضيات. وتنفض التراب عن براويز الصور، وعن الموبيليا، والسجاجيد، وأعدت طقم المائدة، وغسلت الشمعدانات والمرايا، وراجعت الكثير والكثير من

التفاصيل الصغيرة التى لم يكن من الضرورى الاهتمام بها لو أن الواحد أراد أن تبقى بشكل طيب أو أن يعطى انطباعًا حسنًا.

عندما حضر بيللى ونينا، كان البيت يبرق، وأحست أنخيلينا بالسرور والرضا. أما بالنسبة لنينا فقد كانت تحس بالزواج، ما من شك فى ذلك، فقد بدت مطمئنة، هادئة. وأيضًا طريقتها فى الملبس قد تغيرت: كانت ترتدى فستانًا بسيطًا تم تفصيله بشكل تقليدى، وبألوان محايدة، واضعة مكياجها بتحفظ شديد ونسيت تمامًا الرموش الاصطناعية، وباروكات الشعر المستعار، والفساتين غريبة التقاليع، التى كانت ترتديها من قبل. واجدة فى بيللى سلوى عن كل شىء، ولم تعد تتضايق من شىء. كم أحببت أن تلقى نظرة على نينا وقد تحولت إلى سيدة حقيقية. هذا ما علقت به فى مرات كثيرة أنخيلينا وعمتها، والتى لم تعتقد أن هذه المتزوجة حديثًا الكتومة جدًا واللطيفة، كانت تلك الفتاة الملفتة للأنظار جدًا، والمبالغة فى تصرفاتها أن تذهب ذات يوم إلى عملها فى الولايات المتحدة الأمريكية. "ليس هناك شك أن بيللى عرف كيف يحسن التعامل مع نينا". كانت العمة تقول ذلك فى كل لحظة "لكن، هل رأيت بدقة ما ترتب على ذلك بالنسبة لنينا؟ من كان يعتقد ذلك!". "أنا لم أتوقع هذا التغير البالغ الجذرى...".

وإن كانت الاستعدادات للزيارة قد استنفدتهم، فإن الأيام التى وجد فيها بيللى ونينا قد تركتهم وقد فاض الكيل بهم. بيللى كان من جميع النواحى فارسًا.

مهذبًا للغاية، بالغ الرقة. ومنظمًا بشكل منهجى صارم: فهو اعتاد أن يفطر فى الساعة الثامنة صباحًا ويتغدى فى الساعة الواحدة بالضبط، ويتعشى بين الساعة السابعة والنصف والثامنة وبفضل جدول المواعيد هذا فإنه يضمن أن ينهض بما عليه دون أى تعثر. وكان على المسكينة أنخيلينا أن تستيقظ فى الساعة السادسة صباحًا وتترك الطعام معدًا قبل أن تذهب إلى عملها، لأن المرأة العجوز خوليا قالت بوضوح كامل إنها لا يمكنها أن تجازف بأن تقدم لهم الطعام فى هذه الساعة. وهى عندما تقول شيئًا، فهكذا يكون.

عند خروجها من العمل، تجرى أنخيلينا إلى السوبرماركت لتجىء بالمشتريات لليوم التالى وبعد ذلك، وبكل سرعة، تعد العشاء، وبعد العشاء يخرجان للسينما أو المسرح، يزوران بعض أصدقاء نينا أو من العائلة، يذهبان لحانة لتناول كأس أو يقومان ببساطة بجولة فى المدينة، وهذا شىء محبب جدًا بالنسبة لبيللى. أما أنخيلينا فكانت، ولمرات عديدة تعتذر بأنها لا تخرج فى الليل، لكنها وقد لاحظت أن ذلك يضايق بيللى لم تعد ترفض. وإذا مكثوا فى البيت قضوا السهرة فى الحديث مع العمة كارلوتا أو يتفرجون على التليفزيون، وهكذا تدق الساعة الثانية عشرة أو الواحدة صباحًا وهو الوقت نفسه الذى يقضيانه فى حالة الخروج. وهى، التى تستيقظ مبكرًا جدًا فى تلك الساعة التى تجد نفسها متعبة فيها، ميتة من النوم والإرهاق، تحلم بطراوة سريرها ولحظات الاسترخاء

بخمول فيه. وعندما ترقد فى النهاية، فالتعب والتوتر العصبى يحرمانها من أن تذوق النوم، وما كانت تنجح فى الحصول عليه فقط هو أن تنام تقريبًا فى الساعة التى تستيقظ فيها. وعندما يرتفع صوت جرس المنبه فى الساعة الخامسة والنصف تشعر أنخيلينا بأنها ليس لديها القوة لكى تنهض وأن جسمها لم تعد لديه القدرة أكثر من ذلك مع هذا الجهد الهائل الذى تبذله يومًا بعد يوم، وفقط هى بإرادتها هى التى تجعلها تقف على قدميها وتواصل ليوم آخر، ثم ليوم آخر... وهكذا مرت بها الأسابيع الثلاثة التى استغرقتها زيارة نينا وبيللى.

وعندما رحلا فى النهاية (وتأكد أن أنخيلينا أغرمت بنينا، والتى أحبتها دائمًا ليس كأخت صغرى، ولكن كابنة، لأن نينا عندما ولدت وماتت والدتها، اعتنت أنخيلينا والعمة كارلوتا بالطفلة، التى صارت لعبتهما التى من لحم وعظم بالنسبة إلى أنخيلينا التى، منذ ذلك الحين، تركت اللعب بالورق، والسيلوليت. وأنخيلينا لم يكن عندها بالفعل فستان على مقاسها لترتديه، كل فساتينها صارت واسعة عليها كما لو أنها لم تكن لها. كانت قد فقدت وزنها وصارت نحيلة. على الرغم من أنها لم تكن تحب أن تضطر للبدء فى استخدام القليل من اللون الأحمر لتجعل لوجهها لونًا ورديًا تخفى به ذلك الشحوب المرعب. "أنت ترين أى تعب هذا الذى أشعر به، كما لو أننى أعانى إنهاكًا شديدًا". هذا ما كانت تقوله فى

مرات عديدة للعمة كارلوتا، التى لا تسمح لأى شخص آخر أن يكون مريضًا أكثر منها.

"أنا، عندما كنت فى سنك، لم أحس أبدًا بالتعب، كنت غير قابلة للتعب، أتحرك من الصباح إلى المساء كما لو أنه ما فى شىء يتعبنى. وعلى العكس، الآن، مع السنين، والأمراض الشديدة الخطورة التى أعانيها، والتى عندى، والأفضل أن أقول، لأن ما عندى أنا نفسى من أمراض خطيرة، وعلل، ومع ذلك انظرى كيف أحتملها...". وعندئذ تتكلم أنخيلينا فى شىء آخر، لأن عمتها لا تضع فى حسابها أبدًا مرضًا آخر ليس مرضها هى بذاتها.

وصباح يوم من الأيام أحست أنخيلينا بالتعب الشديد فى المكتب حينما كانت تتلقى ما يمليه عليها رئيسها. وفى الحال أرسلت إلى طبيب الشركة، الذى أمر بسلسلة من التحليلات، كما هو متبع.

ـ هذا أخطر مما كنت أظن. قال لها الطبيب ذلك عندما قدمت له أنخيلينا نتائج معمل التحاليل. هل لك أقارب من الدرجة الأولى، يا آنسة رويث؟ إذ إننى أريد أن أتحدث مع واحد منهم.

ـ فى الحقيقة أنا وحيدة، أختى وزوجها موجودان فى الولايات المتحدة الأمريكية، والعمة التى أعيش معها امرأة مسنة ومريضة و... وتوقفت عن أن تقول إن أنانيتها زائدة للدرجة التى لا تجعلها تهتم بأى شخص.

ـ حسنًا، فى هذه الحالة...

ـ والمرض الذى بى يا دكتور؟

ـ لوكيميا، يا آنسة رويث، يؤلمنى كثيرًا أنه من اللازم أن أقول ذلك لحضرتك.

ـ لوكيميا؟ لقد سمعت أنه مرض مميت، أليس كذلك يا دكتور؟

ـ طيب، نعم، بشكل عام هو هكذا، لكن هناك دائمًا ما يمكن عمله، شىء نجربه، وفى هذه الحالة، حالة كون المرض لم ينتشر بالكامل، علينا ببذل كل شىء لإيقاف انتشار المرض.. ولقد تحدثت اليوم مع السيد دى لاجارثا ووضحت له ضرورة دخولك فورًا إلى المستشفى، فى مصح حيث تتلقين حضرتك كل العناية التى تستوجبها مثل هذه الحالات.

أنصتت أنخيلينا إلى ما اقترحه الدكتور دون أن تقول شيئًا، كما لو كان يعرض اقتراحه على شخص آخر وليس عليها. بقيت مكسورة النفس، ومذعورة. هكذا فجأة، وبدون مقدمات، محكومًا عليها بالموت. وبموت ربما وشيك. والواحد لم يكن مستعدًا أبدًا للموت، على الأقل هكذا، حيث لم يكن يتوقع، وكما يقولون دون أن يروض النفس له، ببرود. خرجت من العيادة وهى تسير ببطء وتثاقل، مخنوقة بهذا القدر المحتوم.

السيد دى لاجارثا تصرف بشكل رائع عندما عرف من الطبيب خطورة الحالة، فأمر بإدخال أنخيلينا إلى المستشفى الإنجليزى؛ حيث يذهب فقط إليها كبار الموظفين بالشركة وحيث لم يضن بالنفقات المطلوبة من أجل سكرتيرته، والتى يعترف باجتهادها

والأثر الكبير لعملها، ولأنها كانت السكرتيرة الأكثر تهذيبًا وكفاءة ممن عملن معه.

عندما علمت العمة كارلوتا بأن أنخيلينا ستذهب إلى المستشفى الإنجليزى كى تخضع للعلاج هناك لأن عندها أنيميا شديدة لم يكن ذلك أقل مدعاة من أن تعلق مع خادمتها على ذلك بأن هذه مبالغات خالصة من أنخيلينا، "أن تكون عندها أنيميا ليس شيئًا فى النهاية. لو أن أنخيلينا عندها كل الأمراض التى عندى لا أعرف ما الذى كانت ستفعله، ومع ذلك، أنا هنا أعانى فى صمت.". هذه التعليقات وأخرى كثيرة كانت ترددها كل لحظة.

بقيت أنخيلينا ملازمة للفراش فى الغرفة ٢٥٣ يوم السبت ٢٠ يوليو. وكانت الغرفة لطيفة، لها درجة حرارة مناسبة، وإضاءة كافية وتطل على الحديقة. وأخذت هى معها فقط الراديو النقال (الترانزستور) وعددًا من بعض الكتب، فأية روعة فى أن يكون بإمكانها أن تمكث طوال النهار فى سرير رطب، لطيف، دون أن يكون لزامًا عليها أن تبذل الجهود الفظيعة لكى تنهض من نومها كل يوم، وتذهب إلى العمل، وإلى السوبرماركت، وتجرى من هنا لهناك لتلبى نزوات واحتياجات العمة كارلوتا. أن تستطيع أن تبقى فى سكون، وهى تفكر دون أن تستمع إلى الصرخات ولا الأنين والتشكى: "إنها حياة محزنة عندما تكون الواحدة عجوزًا ومريضة، كل الدنيا تمرض لوحدها، ولا أحد يشغل نفسه بى، أنا تحولت

إلى عائق، ولم أعد صالحة لشىء..." قادرة على أن تتأمل السماء من سريرها، وأشجار الحديقة، وتتطلع إلى عبور السحب، والطيور، وتستمع إلى برامج الراديو العالمية. وتلك الموسيقى الغربية التى تملأ روحها بسلام لا حد له. والمؤكد أنه لم يكن هناك شىء سيئ، والذى من الأفضل/ من حسن الحظ أنه لم يأت. كم كان عذبًا ما اقتحمها، طمأنينة لم تحلم بها أبدًا.

فى صباح اليوم التالى، كانت قد قضت وقتًا طيبًا، والآن فإنها تمطر أحيانًا طوال اليوم، أو تكون مغيمة وباردة، فتخرجها الممرضة لتتنزه فى الحديقة، وهم لا يسمحون لها بالمشى سوى للضرورة حتى لا تتعب أكثر، والممرضة إسبيرانثا تنقلها بكرسى بعجلات وببطانية فوق الساقين، وهكذا يقطعان تلك الطرقات المرصوفة بالزلط لهذه الحديقة الكبيرة والمعتنى بها جيدًا والتى ما أكثر ما أحبتها. فكانتا تتوقفان لتحييا مرضى آخرين، أو يتحدثا معهم، وبعد ذلك، تضع إسبيرانثا الكرسى ذا العجلات فى الظل وهناك وتبقين حتى تحين ساعة الغداء. أحيانًا كانتا تتبادلان الحديث، وفى أحيان أخرى، أنخيلينا لا تكون لديها الرغبة فى أن تفعل فتغمض عينيها وتتوه فى أفكارها وذكرياتها، وعندئذ تخرج الممرضة رواية مصورة، وتأخذ فى القراءة. وتقريبًا فى عمق الحديقة كان هناك عنبر بالغ الصغر ومنعزل عن بقية العنابر، حيث لا تثير أية حركة فيه الانتباه، وحيث لا يدخله

ولا يخرج منه أحد. وهذا جذب انتباهها، بل الأفضل إنه أثار فضول أنخيلينا، ولمرات عديدة مرت من هناك أو كانت قريبة منه، جالسة فى كرسيها ذى العجلات. وكرست نفسها كى تحاول أن تراقب أى أثر للحياة.

وذات يوم سألت الممرضة: لماذا هو وحده تمامًا ذلك العنبر؟

ـ إنه عنبر النقاهة ـ أجابت إسبيرانثا.

ـ عنبر النقاهة؟ وما يكون ذلك؟

ـ إنه حيث يحضرون إليه الذين يموتون. وأول ما تحدث الوفاة ينقلونهم بسرعة شديدة، قبل أن يفكر بقية المرضى وتنهار أعصابهم. وهناك يحتفظون بهم حتى تصل الأسرة ويأمروا لأية وكالة دفن موتى سيرسلون فى طلبها. وعندما يكون الموتى ليسوا من العاصمة وجاءوا للعلاج من مكان ما فى الجمهورية، يمكثون فى عنبر النقاهة، لعدة أيام، حتى يصل الأهل أو شخص ما يطلبهم. ومن الواضح أنه فى هذه الحالات فإنهم يجهزونهم حسب الأصول لكى يتحملوا الانتظار ولا يتحللون.

ـ وعندما لا يموت أحد؟

ـ حينئذ يكون العنبر خاليًا، كما هو الآن.

ـ (إنه خال، كما هو الآن، إنه خال، كما هو الآن، وكما هو الآن، هو خال، إنه خال، كما هو الآن، كما هو الآن...) ـ رددت أنخيلينا ذلك بينها وبين نفسها كلمات الممرضة. هاتان الجملتان أثارتا مشاعرها

واضطرابها. وبلا شك حركتا شيئًا دفينًا شديد العمق بداخلها مثل نبع تحت الأرض.

من هذا اليوم وأنخيلينا تطلب بشكل دائم من الممرضة إسبيرانثا أن تركن الكرسى ذا العجلات أمام أو فى جانب العنبر، كما لو كان هذا موديلا وهو ما سترسمه كلوحة زيتية على قماش. لكن الرسم كان من الداخل. وهى كانت ترقب، بتأنٍ شديد واهتمام ذلك المبنى المختلف قليلا عن العنابر الأخرى: أكثر تقشفًا، أكثر بساطة، مدهون باللون الأبيض. كان لطيفًا جدًا، مما يستوجب أن يكون أهلا تمامًا بالناس، بالضجيج، بالحركة، وليس هكذا غارقًا فى هجران كامل، يلفه السكون، كما ينصب فيه السكون نفسه، وفى الوحدة. "أى ظلم، وأى تعاسة" فكرت أنخيلينا.

فى بعض الأيام، لم يريدوا إخراجها للنزهة، لأن اليوم كان باردًا، أو أن أنخيلينا عندها درجة من الحمى، ويمكن أن تأخذ زكامًا أو شيئًا آخر أكثر خطرًا. وهى ألحت، وعادت تلح فى أن يسمحوا لها بالخروج إلى الحديقة لتقوم بجولة وحدها. أحيانًا كان السماح لها مرفوضًا فتقضى هى اليوم غارقة فى الإحباط والضيق؛ لأنها لا تعرف إذا كان العنبر خاليًا لا يزال أم أنه انشغل.

فى تلك الأيام، أنخيلينا فقدت شهيتها للطعام، الحمى زادت. وبدهاء استفسرت عن المرضى الأشد مرضًا، كيف سيستمرون؟ هل هم فى نفس الحالة أم إنهم قد صاروا فى حالة أسوأ؟ ومتى؟، وكيف؟ وما الذى يقوله الأطباء؟.

ومرة خلال أسبوع جاءت رسالة من نينا وبيللى مع أطيب تمنياتهما بأن تسد أنخيلينا حاجتها بمرضها. رسائل بالغة الحميمية دائمًا، مليئة بالقوة والتفاؤل ودعوها لأن تقضى معهما فترة فى أقرب وقت يأمر به الأطباء. خوليا الخادمة، تكلمت مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع من ناحية كارلوتا، لكى تسأل كيف تمضى الأمور، أيضًا من المكتب فقد سألوا عن أخبار صحتها، وأيام الآحاد، يوم الزيارة، وكان ذلك عن طريق مندوب من السيد دى جارثا، وحياها وليعرف إذا كانت تعالج جيدًا وإذا كانت فى حاجة إلى شىء ما. والسيد دى جارثا ذهب لرؤيتها فى مناسبتين؛ وكانتا زيارتين قصيرتين جدًا، لكن كم كان ذلك لطفًا كبيرًا منه، إذ أنه، وهذا تعرفه جيدًا، وتدرك جيدًا أنه يكره الذهاب إلى المستشفيات وزيارة المرضى. والشىء الرئيسى فى داخل المستشفى هو أن أنخيلينا كانت تنتظر يوم الأحد بفارغ الصبر، فكانت تجرى حديثًا بالغ التوهم مع شخص ما من المكتب، ومعرفة أعياد الميلاد، وكل ما يحدث فى غيابها. عملها، المكتب، رئيسها ومعاونوه كان ذلك كله عالمها. بعد ذلك، شيئًا فشيئًا، بدأت ترغب فى ألا يكون هناك من جاء لزيارتها، وبالفعل لم تعد تحب أن تكون لها زيارات، لأن ذلك يحول بينها وبين أن تذهب إلى العنبر، تجلس أمامه، منتظرة فى شوق بالغ أن يكون قد انشغل أو يشاركها وحدتها.

وفى صباح أحد الأيام، مثلما فى الشهرين اللذين بقيت فيهما فى القسم الداخلى، الأطباء الذين كانوا يعالجونها قالوا لها هذا الخبر:

ـ لو أن كل شيء سار على ما يرام، هكذا كما يجرى حتى الآن، فسوف نسمح لك فوراً بالذهاب إلى بيتك يا آنسة رويث. والدهشة جعلت عينيها تشعان، دون أن تصدق ما تسمعه.

ـ إلى بيتى؟

ـ بالضبط كما سمعت حضرتك، فحالتك المرضية تغيرت بشكل إيجابى، حتى إنه بإمكانك أن تغادرى المستشفى فى وقت قصير، وأن تواصلى، فى بيتك مع العلاج.

خرج الأطباء من الغرفة ليتركوا أنخيلينا فى ارتباك شامل وحيرة. أفكارها كانت أمهاراً نافرة: "تتركى المستشفى فى أقل من الوقت الذى تفكرين فيه بذلك، تذهبين إلى بيتك، تهجرين العنبر، تغادرين المستشفى فى وقت قصير، خلال أيام، تذهبين إلى بيتك تهجرين العنبر وهو مازال أكثر عزلة، لأن الآن قد وجد من يشفق عليه، من يتفهمه، من يشغل نفسه بوحدته، بهجرانه، ذلك ليس محسوباً فى خططك، تذهبين من هناك فى وقت أقل مما كنت تتوقعينه، لابد أن تذهبى وتتركيه، أكثر وحدة الآن، أكثر وحدة وأكثر حزناً، لا يمكن أن يكون، وهى لا يمكنها أن تقبل، لا يمكنها...".

ـ يا آنسة رويث، أقراصك، يا آنسة رويث... حضرتك غارقة فى التفكير، هل يشغلك شيء ما؟

ـ لا يا إسبيرانثا، لا شيء، كنت سرحانة، هذا كل شيء.

فى تلك الليلة لم تنم أنخيلينا مثقلة بتلك الدوامة من الأفكار، التى تتزاحم فى عقلها دون أن تجد لها مكانًا لحل يرضيها، وعندما جاءت ممرضة وردية الليل فى السادسة صباحًا، لتأخذ قياس درجة حرارتها، وأمارات حيويتها، وجدت أنخيلينا متيقظة وخائرة القوى من الأرق طوال الليل، شاحبة جدًا، وغائرة العينين.

ـ لكن ما الذى جرى لك يا آنسة أنخيلينا؟ هل تحسين بأنك لست فى حالة طيبة؟

ـ لا يا كارميليتا، أنا فى حالة طيبة ـ أجابتها أنخيلينا بصوت خافت ـ وما حدث هو أننى لم أتمكن من النوم طوال الليل. وهذا هو كل شىء.

ـ لكن يا له من حظ سيئ؛ لقد كنت فى حالة جيدة جدًا حضرتك! كان وجهك نضرًا جدًا بالأمس! وبدا بالفعل أنك لست مريضة وبالفعل شفت (رأيت) الدكاترة وهم خارجون من عندك سعداء.

تناولت أنخيلينا وجبة الإفطار بلا رغبة وفى بطء، مكتئبة ومستغرقة فى التفكير. وعليها أن تجد حلا فى أقرب وقت ممكن، ولكن، كيف؟ وما هو؟ أن تخرج، لكن هى لا يمكنها أن تذهب وتترك العنبر. ستكون قاسية جدًا، وليس فى قلبها رحمة، وستكون إنسانة خائنة، نعم، هذا هو بالضبط، إنسانة خائنة، وهى لم تكن خائنة أبدًا.

ـ أتصور أنك فى هذا اليوم ليست لديك الرغبة فى الخروج للحديقة لتقومى بنزهتك.

سألتها إسبيرانثا، وهى تخرجها فى حالة الغياب عما حولها.

ـ كيف تقولين ذلك؟ طبعًا أريد أن أخرج! تعرفين حضرتك إن تلك الفترة فى الحديقة تجعلنى فى حالة أفضل. فأنا أحب كثيرًا أن أرى الزهور، والحشيش الأخضر والأشجار، والطيور، وأستنشق بشكل عميق الهواء النقى، وأحس بدفء الشمس، وأتأمل السماء والسحب، كل ذلك، لكن، لماذا نضيع الوقت ونحن نتكلم؟ الأفضل أن نذهب إلى الحديقة.

وهناك، أمام العنبر، وتحت الظل اللطيف للشجرة الكبيرة، شجرة الفراولة، أحست أنخيلينا بأنها تنتعش وتستعيد قواها، وكل شىء تغير بمجرد ما استطاعت أن تتطلع إلى العنبر، عنبرها. نعم، الأحسن أن تقولها، إنه عنبرها، إنها تنتمى إليه؛ لأنها قد اكتشفت وحدته، أدركتها وشاركته إياها، وكانت مشفقة على انتظاره الطويل، وسكونه العميق، لقد اكتشفت الحزن الهائل لكونه دائمًا وحيدًا، ودائمًا خاليًا. مرات قليلة جدًا يكون مشغولاً ولوقت قصير جدًا. لساعات، ليوم أو يومين بعد ذلك الانتظار، والانتظار، والانتظار.

ـ إنها الساعة الواحدة الآن. قالت ذلك إسبيرانثا بصوت كما لو كان آتيًا من بعيد. علينا أن نعود أو سنجد طعام الغداء قد برد.

وحتى فى هذه الليلة لم تنم أنخيلينا، قضت الليلة بطولها تمعن التفكير فى الأمر عليها أن تجد شيئًا

يحول دون رحيلها، لا يمكنها أن تذهب وتترك العنبر مهجورًا. فهى لا تقدر على شىء مثل هذا، لا تقدر، لا تقدر، ولا تريد أن تذهب، وسوف تبقى هناك لأن هذه هى رغبتها، لكن، ماذا تفعل؟ كيف تعترض؟ وهكذا ظلت تتقلب وتتقلب فى السرير، والنوم لم تذقه. فضلا عن أنها لم ترغب فى النوم، هى ترغب فى أن تجد حلا هى فى حاجة إليه، وعليها أن تعثر عليه بسرعة، قبل أن يرسلوها إلى بيتها، وينتزعوها نهائيًا من عنبرها، إنها ستذهب بحزن لا حد له، وألم شديد وهو سيبقى ومازال أكثر وحدة، دون أى أحد يجلس أمامه ويتأمله ويشفق عليه، ويترقب إذا ما كان أحد قد وصل، إذا ما كانوا قد حملوا إليه ميتًا، أيام كثيرة مضت دون أن يموت أحد. لقد طفح الكيل! مع كثرة المرضى بأمراض شديدة الخطورة كما هو حاصل، ويمر يوم وآخر، وآخر ولا يموتون. وهى تتساءل بشكل متوارٍ مسيطرة على تشوقها، "كيف تمضى حالة السيدة إسكوبار؟ أجل. آه إنها لا تزال تعانى المسكينة، وإنه شىء لايمكن تصديقه القدرة على المقاومة التى لدى بعض الأشخاص، فالأسبوع الفائت انكبوا على الصلاة باستمرار وآه.. مازالت...".

"والسيد فى الغرفة ٣٠٥ دون سيبيرو لا يزال أيضًا على حالته نفسها، أحيانًا يبدو عليه أنه سيودع وفى اليوم التالى ينتعش، والعائلة بالفعل فقدت الأمل وأيضًا تعبت والمصاريف باهظة...". "والسيدة الإسبانية؟ آه، هذه المرأة المسكينة الآن تبدو أكثر قربًا

من الموت منها إلى الحياة، لكنها لا تزال تتردد أنفاسها، كم عانت المسكينة...". ذلك ما تقولونه، وهى التى لديها أمل خفى فى أن شخصًا ما يكون قد مات ويكون فى عنبرها. ترافقه ولو للحظة واحدة فقط، لكن لا أحد يموت والعنبر المسكين محكوم عليه بالوحدة الفادحة الأكثر وغير العادلة، بالضيق الأكثر من الانتظارات، تلك كانت حياته. انتظار، انتظار، انتظار، لكن لماذا هذا القدر المروع؟ فالعنابر الأخرى ممتلئة بالناس، دون أن تكون غرفة واحدة فيه خالية والمسكين وحده... ومرة أخرى أنت مستيقظة، كم إن ذلك شيء سيئ. أنا لن أذهب للدكاترة؛ لأنهم لن يروقهم ذلك - هذا ما قالته ممرضة وردية الليل.

منذ ذلك اليوم، اتفق الدكاترة على أن تتناول أنخيلينا قرصًا منومًا ساعة تناولها وجبة العشاء وحتى تنام جيدًا. وهكذا سارت الأمور. تلك الليلة نامت أنخيلينا كما ينام الأطفال، بنوم عميق وسليم. مما أسفر عن نتائج طيبة تم الحصول عليها بالدواء، والذى يصفونها لها يوميًا. لكن أنخيلينا كانت قد توصلت بسرعة إلى حل وهو الذى كانت متلهفة عليه بشدة، وبالمثل كانت تبحث عنه بلا أمل عبر الأرق. تلك الليلة بعد أن تناولت عشاءها أعطوها أقراصها، وهى تظاهرت بأنها تناولتها، لكنها أخفتها بعناية شديدة، وهكذا يومًا بعد يوم.

والآن أنخيلينا هادئة، متأنية وصبورة، وتحصى أقراصها مثل البخيل الذى بعينيه الشرهتين

المتهالكتين على المال تحصى كنزها يوميًا، وعلى الرغم من أنها لا تتناول أقراصها فإنها تنام جيدًا. تمكث طويلاً، حتى لا تضايق بقية المرضى، تستمع إلى موسيقاها الكلاسيكية التى تحبها بشدة حتى نهاية البرامج فى منتصف الليل. بعد ذلك تغمض عينيها، وتبدأ فى حلم اليقظة كما لو أنه هنا، فى النهاية هنا فى العنبر، غارقين فى السكون المتبادل والسلام التام فى الوحدة نفسها فى الألم الطويل للانتظار عبر الحياة عبر المكان المقدس المظلم والرمادى دون صدى، ودون تشوش، ودون إدراك فى الفراغ الطويل دون تواصل يوحد تمامًا بينهما، ويمزجهمافى تحققات كاملة... نعم، هذا صحيح. هذا ما قالته أنخيلينا تلك الليلة وقررت ألا تؤخر أكثر من ذلك هذا النوم الذى ما أكثر ما حلمت به.

العنـــاق

أمام النافذة، كانت جالسة تتسلى وهى تنظر إلى قطرات الماء التى تنزلق على ألواح الزجاج. كانت ليلة ممطرة ومظلمة من ليالى الخريف. واحدة من تلك الليالى التى يسقط المطر فيها ببطء وبشكل متواصل برتابة البكاء الأصم. وذلك البكاء الذى تسمعه فى أركان البيوت المهجورة. ومن مقعدها كان باستطاعتها أن تشاهد البروق، التى تقذف بالشرر فى ذلك الأفق المظلم من البنايات التى لها شكل "السلويت"، والتى تضاء للحظات خاطفة فقط بنور الصواعق. ومن حين لآخر تلقى بثقلها المتزايد على النافذة، وتشرع فى تأمل الشارع الخالى والمطر الذى يتساقط فوق البلاطات العتيقة مشكلاً بركًا أو متسربًا ومنطلقًا فى مجاريه. وكان ذلك تقريبًا كل ما كان باستطاعتها أن تفعله فى تلك الليالى عندما تتناقص إنارة المدينة وتنخفض إلى حد بعيد أو تنقطع على فترات؛ بسبب التخفيض المستمر للطاقة الكهربائية. الليالى التى يشتد فيها الحزن والتى تحس فيها بثقل الماضى

بالكامل حيًا. والوحدة تجثم عائدة مثل هذا الصمت الهائل، يقطعه فقط بأصوات الرعد، أصوات عواء الكلاب التى تقيدها الجيران. أو بالرياح التى تضرب الأبواب والنوافذ. وبعد أن تعبت من النظر إلى الشارع، تناولت شغلها من فوق الشماعة وجلست تواصل نسجها، وفى النسج أيضًا ذكرياتها عندما كانت هى، مارينا، تنتظره ليلة بعد ليلة تترقب وصوله من خلال ستائر النافذة الشفافة، قلقة حتى الموت، إذا لم يأت فى وقته. وبقدر ما تمر الدقائق تصير أكثر عصبية، تنظر فى المرآة كل خمس دقائق لتضع البودرة على أنفها. مرة أخرى، وتعطر نفسها، والكريم فى يديها، تمشط شعرها، وتعيد تمشيط شعرها، ومن جديد العطر، وبالمبرد تنعم حواف أظافرها، وتبدل وضع الخطوط بجوربها، تحاول أن تقرأ لكن ما من قراءة نجحت فى جواب اهتمامها، فرمت بالكتاب فاقدة الرغبة. وراحت وجاءت فى البيت وهى تتطلع إلى الساعة، صحت، جرت إلى النافذة. كم من المرات بكت خائفة من أن شيئًا ما سيحدث، أو أنه لم يعد يحبها أكثر ولن يعود أبدا وأيضًا كم تعذبت وهى تفكر فى أنه قد يكون مع امرأة أخرى، وانتحبت مفسدة المكياج بشكل مثير للرثاء متممًا ما تعانيه من ألم ويأس حتى سمعت فى النهاية المفتاح يدور لمرات فى "كالون" الباب. الصرير الطويل كأنين مؤلم، من باب فتحته الريح وجعلته يرتج، وعصفة هواء وصلت إليها كانت مثل نفس بارد بجانب وجهها. هبَّةٌ ثلجية خفيفة.

أصلحت مارينا وضع الشال الصوفى وراحت لتغلق الباب. وعادت لتجلس وتواصل نسجها، راكيل كانت قد علمتها كيف تنسج. راكيل، وحنين عظيم غزاها واستدعى اسم صديقتها، صديقتها الوحيدة، ومنذ المدرسة لم تفترقا. مارينا تحكى لها عن كل ما يخصها، على الرغم من أن راكيل تراقب/ تعيب عليها/ تلوم سلوكها فى وجودها وفى تفكيرها. ومهما كلف الأمر تريد أن تغيرها. وكان طبيعيًا أن راكيل، تربت داخل أطر أخلاقية صارمة أكثر من اللازم، مليئة بالتشكك والتردد لا يمكنها أن توافق ولا أن ترضى بشىء، يخرج عن أصولها، لكن بالرغم من كل شىء فقد منحتها ثقة كبيرة. كم بعدت، ففيما مضى كانت تلك الليالى عندما كانتا تتناولان الشاى فى الصالون الصغير بموبيليا من طراز لويس الخامس عشر فى بيت راكيل!.

هناك كانتا تتحدثان ساعات وساعات، حتى يحل المساء وهى تقريبًا تمضى جارية من أجل أن تتهيأ وتنتظره "أعتقد أنه لا أحد قادر على الحب مثله، يا راكيل" تقول لها ذلك دائمًا، وراكيل تبدى استنكارها وهى تهز رأسها، وقد رسمت ابتسامة دون أن تقول شيئًا. كم تألمت عندما تزوجت راكيل وذهبت لتعيش فى فيينا. لا أقل من فيينا، مكان على مسافة شديدة البعد. كانت تحس بحزن بالغ ومكتئبة فى يوم الزفاف كما لو كانت بداخل الهاجس بأنها ستفقدها. هاجس سرعان ما تحقق، لم تحب هى أبدًا حفلات الزفاف، وقليلا جدًا ما وقفت إلى جانب راكيل، وتلك الأخرى،

تلك التى قررت حياتها... أقبلت فى بداية الزفاف بفستان وقبعة، فستان مطرز بأشكال زهور الليلك والذى كان رأيهن كلهن أنه كان بالغ الجمال، لكن هى لم تحس بالرضا عنه، بل ضايقها. لا. لا. إنه وحده هذا، وعانت من إحساس شديد الخطورة؛ وآلمها كثيرًا، كثيرًا، أكثر مما تستطيع أبدًا أن تتخيله، أن تتزوج منه هو، الصديق الذى أحبته منذ الطفولة، والذى كان دائمًا قريبًا منها فى كل اللحظات المفرحة والمؤلمة. وأثناء القداس لم تكن قادرة على أن تفرح بل كانت تبكى دون أن يعزيها شىء أو يهمها شىء. وفى هذه الكنيسة المزدحمة بأناس فى منتهى الأناقة، بالزهور وبالموسيقى، كانت تعرف أن ذلك كله عبث، وفوق كل شىء فإنها مظاهر متكلفة. لم تتحمل أن تنظر إليه مرتبطًا على الدوام بتلك المرأة التافهة، السوقية، والتى بلا أية جاذبية.. لا تستطيع أن تحتمله؛ لأنها تعرف عندئذ، بكل تأكيد، أنها أحبته، وأنها تريده لها هى فقط. وبعد الاحتفال ذهبت مع راكيل إلى غرفة المقدسات لتهنئة العروسين وراكيل لم تكن قد ضاجعت أحدًا حتى هذه اللحظة، لكن لا يمكن إنكار أنها قد اكتشفت ما مر به. وعندما عانقته لم يستطيعا أن يمنعا أنفسهما من أن يلتفتا ليمسحا دموعهما، "إنه عبث، ألا تعتقد ذلك؟" كان هذا هو الشىء الوحيد الذى جرى قوله، لكن فى عينيه وبداخل الارتجاف المتبادل للعناق رأت أنه لم يكن عبثًا، وأن الحياة بدأت للاثنين فى هذه اللحظة. لم تعد أبدًا لمعرفة شىء عن راكيل منذ أن رحلت لتعيش فى فيينا، ولم تستلم منها

ولا رسالة واحدة طوال كل تلك السنوات. ربما الزوج هو الأكثر امتلاء بالأوهام بأن راكيل نفسها هى التى تحرم هذه الصداقة ربما... من الذى يستطيع أن يعرف؟ إنهم كلهم فقدوا تقريبًا الزمن نفسه، ففى عدة شهور بقيت وحيدة تمامًا. لكن مارينا تفضل أن تتذكر أمورًا أخرى، لحظات أخرى، تلك التى تملأ حياتها، تلك الليالى التى كانت فيها، وهذا ما تتمناه الآن، تريد أن تموت من اللذة بين ذراعيه، عليها أن تكون جميلة كى تموت وهى كذلك. الأيادى متعانقة، والفمان انطبقا، والتنفس جرى بإيقاع واحد، والارتعاشة واحدة، وبعدها.

مارينا بدأت تشم رائحة مثل رائحة زهور البرتقال أو زهور الليمون، أو أوراق النارنج: عطر انتشر فى الغرفة، شمت يديها، فلم تكن لهما رائحة. ربما رائحة صابون، تنفست بعمق، إنها الرائحة التى أحبتها كثيرًا، رائحته، عندما يمسح وجهه بماء اللافندر. "العطور تهب مثل الذكريات، لكنها باقية دائمًا". فهو عندما يذهب، تفتش مارينا فى السرير عن رائحة جسده وتعود للنوم وهى تفكر أنه مازال يواصل النوم بجانبها. وعندما تحكى له عن ذلك، يضحك. كم تحب أن تراه وهو يضحك، إذ تراه أكثر شبابًا لا يزال، بقصة الشعر الشقراء والتى سقطت على جبينه، وتلك التكشيرة الساخرة والتى جعلت شفتيه بمثل هذه الرقة ومرسومتين بجمال. فعندما يضحك يكون مثل الطفل. كم كان محبًا، وكم أحبته جدًا. أن تكون هى هنا، خارج الزمن، دون أن تكون

مهتمة فعلا بشىء. بعيدة عن الكل، وعن كل شىء، قريبة، وفقط تتذكر لحظة بعد لحظة، وكلمة بعد كلمة، كما لو أن السنين لم تمر، كما لو أنه فقط بالأمس... ومارينا تحس بحاجة قاهرة لأن تراه، لتعرف كيف صار هو. نهضت وراحت تبحث عن صندوق؛ حيث تحتفظ فيه بالرسائل، الصور، منديل، زهور جافة، وكل تلك الأشياء الصغيرة التى حافظت عليها... هنا كانت محاطة بالأساتذة يوم حفل استقبال المحامى؛ وما أن راحت مارينا تتأمله حتى شعرت بجيش من النمل يصعد فى أوردتها وبكاء شديد خنقها. توقف التيار الكهربائى مرة واحدة رج الليل والنور انقطع.

ظلت مارينا بلا حراك ومعها الصندوق مفتوح تنتظر أن يعود النور. وببطء بدأت الدموع تنحدر فوق خديها، وبعد وقت طويل لم تستطع فيه أن تبكى. وعندما ظنت بأن الدموع كلها جفت، أتت الآن، كمطر بارد، ليرطب عينيها المحمرتين من قلة النوم... الوهج الخافت للمبة الجاز، والتى اعتادت أن تحتفظ بها فى غرفة نومها، سمحت بأن يصل منها إلى الصالة ضوء خافت. كانت تحتفظ بهذه اللمبة مضاءة بشكل دائم، لأنها تحب أن تظل كدليل على الحب الخالص. وعندما عاد النور، أخذت تتأمل الصورة التى بللتها الدموع... كانت ترتدى فستانًا غامقًا ليلة حفل الاستقبال، إنها تُرى شديدة الجدية، إنها الأعصاب بلا شك، فهى عصبية جدًا، وعصبية زائدة، أكثر مما يتصور أصدقاؤها، ويداها دائمًا باردتان، ومبتلتان من

العرق. لقد أخذ يديها بين يديه حتى يزيل منهما التصلب، ويدفئهما، يداه كانتا نحيلتين، وطويلتين... وفى تلك الصورة الأخرى، كانا هما الاثنان مع أصدقاء... وبعد العشاء كان عليهما أن يرقصا، ورقصت بشكل جيد جدًا، تذكرت الخطوة تلك التى مع خطوته، كما لو أنها داست بخفة على قدمه عندما كانت تقوم بالدورانات، كان هو فارع الطول، وهى تصل إلى كتفه، وهناك استقرت رأسها، ودائمًا كانا شديدى الالتصاق، ومتعانقين كما لو كانا جسدًا واحدًا، وهى أحيت بداخلها ارتعاشات عميقة، ذبذبة سرت فى كيانها كله، وما تتذكره فى وحدتها. انتابها دوار خفيف من كئوس الكوكتيل، جعلتها تخطو مسرعة، وخلعت حذاءها ثم جرت حافية إلى الستارة... أنصتت مارينا إلى وقع خفيف لخطوات كما لو أن شخصًا كان داخلاً إلى الصالة، ذلك الصرير لخشب الأرضية القديم الذى يحدث عندما يمشى أحد فوقه. "إنها فقط قطع الأثاث التى يسمع صوت صريرها من الرطوبة، قطع الكومودينو، الترابيزات، الكراسى، كلها تطقطق، كلها تئن، لقد سمعتها لمرات عديدة، وفى الليل كل الأصوات تتضخم، صوت تكتكة الساعة والتى تسمع بالكاد خلال النهار؛ فى سكون الليل تسمع كما لو أنها بندول هائل وظلت تدخن ونظراتها معلقة على المنظر الجانبى للستارة المرسومة عليها الفريسه. تنظر إليها وهى تجرى، دون أن تقول شيئًا، ترى نفسها شديدة الشحوب فى ضوء القمر الذى، صار بدرًا، بشكل

مرعب... شديدة الرعب والشحوب وجميلة مثلما هى الآن حيث تتأمل (نفسها؟) دون حركة، وفى سكون، واقفة قرب البيانو، استوت على المقعد بينما قلبها تتعالى ضرباته بشكل أصم واستعجال، ووضعت الصندوق على إحدى المناضد التى كانت بجوارها. بقيت لا تعرف ماذا تفعل ولا فيم تفكر، مشلولة، كما لو أنها ستقع فجأة فى هوة. لابد أنها مفاجأة، الانفعال بأنها ستعود وتراه فى الوقت الذى لم يعد يحميها أى أمل، وأيضًا، كيف تفهمه، كيف توضح نفسها له؟ فهو لا يعرف هو نفسه إذا كان جسده، ذلك الجسد الذى تعرفه جيدًا جدًا، أو هو نفسه سيكون دخانًا أو شيئًا ما يتحلل بين يديها، فهى قد رأت الصندوق وهو ينزل إلى القبر، وحينئذ أيضًا تتساءل مرة وألف مرة إذا كان هو، جسده، الذى كان داخل هذا الصندوق المعدنى والذى لا يمكنها أن تفتحه لأن ذلك فوق طاقتها، ولأنه غير ممكن لأنه سيكون بداخله، متخشبًا، ميتًا، شىء ما يلح عليها فى أن تراه، وأن ذلك سيكون الأفضل، وآخرون كان رأيهم أنها لا يمكن أن تتحمل رؤية وجهه مهشمًا، بعد ذلك بدءوا يهيلون عليه التراب، جواريف الذين يدفنونه كانت تملأ المدفن فى تلك الليلة الباردة الممطرة من نوفمبر... لا. لا تستطيع أن تتحرك، كانت كما لو أنها قد مدت جذورها ولا تستطيع بنفسها قطع تلك الخطوات العديدة التى تفصلها عنه وتجرى إليه، ملقية بذراعيها حول عنقه مثلما كان يجرى من قبل عندما تراه قد وصل، لا تجرؤ أن تلمسه وكان ذلك

أكثر ما ترغبه، وما تنتظره زمنًا طويلا. لن تستطيع أبدًا أن تتمالك نفسها أمامه، وقد اجتاحتها رغبة شديدة لا يمكن أن تقاوم بأن تلقى بنفسها بين ذراعيه، أرادت أن تعانقه، تقبله، تطوف بجسده وتعيد التعرف على كل... لكنه الدخان، الرماد، العظام فتطيب لا يمكنها أن تتخلى عن التفكير فى تلك الأشياء، تنتزعها من عقلها، لا، لا تستطيع، لكن ألا تراه هكذا، هكذا، بهذه الطريقة.

ـ لا، من أجل الرب! ألا أراك هكذا. صرخت مارينا: وبدأت تنتحب بلا صوت وهى تغطى وجهها... عندما يراقبونها فهى تبكى دائمًا وتقول أشياءً كثيرة وهى تندب قسوته. لقد بقى هو جادًا وهادئًا، مفكرًا، ناظرًا إليها بنظرته تلك المليئة بالحزن، كاقتراب أصم، طريقه ما يقول لها بها ألا تعذبه بحماقات، بتلك النظرة ذاتها مع أنها الآن... عواءات الكلاب تملأ الليل. مارينا كفت عن البكاء، ورفعت رأسها.

ـ لا تفزع، يا حبيبى، إنها فقط الكلاب التى تعوى فى الليل، والريح التى تهز الأبواب، لا شىء أكثر من ذلك فى هذا البيت. فقط أنت وأنا. تفصلنا بضع خطوات، وقد اجتاحتنا رغبة السنين، التى ما أشد ما طال غيابها. ودعنى أحكى لك عن تلك الليالى الأبدية التى ناديت عليك فيها كى تبقى بدون صوت وفقط بغمغمة خشنة وجافة تخرج من حنجرتى مبحوحة، والتى كنت فيها ثائرة؛ لأننى لن أراك بعد ذلك، وكنت أخبط نفسى فى الحائط والأشياء بعنف، حتى أسقط

خائرة القوى، وميتة من اليأس فى السرير، فى ذلك السرير الجامد الذى لم تحبه أبدًا والذى يبعث صريرًا عاليًا. هل تذكر؟ انتظر، لا تتحرك، انتظر أكثر قليلا، بالفعل أنا لا أعرف ما أقوله لك، فكرت فى أشياءً كثيرة لا صلة بينها، أنا لا أعرف ما هو الموت، وأبدًا لم أدركه، لكن أنت لست ميتًا. أنت كما كنت من قبل، وإذا كنت قد مت، فلم يمت حبى، ولأحبك ونحن وحدنا، وحدنا معًا بنفس الشوق للنوم معًا، لقد توقفت الساعة، هل تسمعها؟ الآن لا وجود للزمن، نستطيع أن نتبادل الحب دون الساعات التى تهددنا بمطرقة دقات ساعاتها، دون أن يكون علينا أن نباعد جسدينا أبدًا. آه! كم كان قاسيًا عندما تنتزع نفسك منى وتتعجل ارتداء ملابسك، وتمشى قبل أن يطلع النهار ويمكن لأحد أن يراك خارجًا من بيتى. أى ألم وأنا أراك تغادر يوميًا، عندما ينغلق الباب خلفك، وأجرى إلى النافذة حتى أراك تختفى بين ظلال الشارع. بعد ذلك أتمدد على السرير بعيون مفتوحة، وأعيد خلق اللحظات، انتظرتك كثيرًا، ولزمن طويل، وللآن لا أعرف كم من السنين، ولليالٍ طويلة وأنا ملتصقة بزجاج النافذة، أراقب الظلال التى تعبر الشارع، وأجرى بعد ذلك خلف شخص يمكن أن يكون أنت، حتى ألحق به وأرى وجهه فاكتشف وجهًا آخر لا يقول لى شيئًا. وفى يوم ما فقدت الأمل فى أن ترجع، وأننى عشت كل السنين الطويلة، السنين الأبدية، فقط بتذكرى لك. دائمًا أتذكرك، فى كل الساعات، فى كل لحظة، وفوق كل هذا فى الليل عندما تمطر وبحس

الـواحـدة كم هـى وحـيـدة جـدًا، وبلا عـزاء، أصـغى إلى المطر وهو يتساقط بلا نهاية. انتظر، يا حبى، انتظر لحظة أكثر، علىَّ أن أقول لك إننى لست مثلما كنت من قبل، أنت تعرف، الواحدة استغنت عن الأكل، وعن النوم، وصرت نحيفة، لكن لن أقول لك شيئًا، ولن أتسبب فى حزنك، الآن أستطيع أن أهبك الحب نفسه، المتعة نفسها، تعالى الآن، يا حبى، تعالى، عانقنى وضمنى بقوة.

أشجارٌ متحجرة

كان ذلك بالليل، وأنا مستلقية فى الفراش وحدى. وكل شىء كان يطبق بثقله علىَّ كما لو كنت ميتة، والجدران الأربعة تتهاوى فوقى، مثل الصمت والوحدة اللذين يسجناننى. هى تمطر، والمطر أسمعه وهو يتساقط فى بطء. والأوتومبيلات تمر سريعة. والصفارة التى يطلقها الحارس الليلى السهران يتحشرج صفيرها كما لو أنها صرخة محتضر. وآخر عربة لنقل الركاب مرت فى منتصف الليل. كان ذلك أيضًا فى مثل هذا الوقت من منتصف الليل. كنا مضطجعين، وتنفسنا كان قد بدأ يهدأ. وفى كل مرة يتم بخفة أكثر. كنا غريقين ألقى بهما على الشاطئ نفسه، ولا شىء يهم فى ألاَّ نكون نحن أنفسنا الآن. مندهشينَ من حقيقة أننا؛ وبدون أن نعرفه قد شعرنا به، كنا نتحسس باحثين عنه فى الجانب الآخر للعالم، ونهتدى إلى أنفسنا فى العزلة والحلم، وإننا هنا نتعرف على بعضنا عبر الجسد. ولبثنا بلا حركة،

ولوقت طويل فى سكون، الواحد بجانب الآخر. وتعود يدك لتداعبنى، وشفاهنا تتلاقى، وموجة حارة تغمرنا، ووقعنا مرة أخرى فى مياه عميقة، وضعنا معًا، أنت تتنهد وأنا أيضًا. لنجرب مرة أخرى. لكن الوقت كان قد فات. دقائق أو سنين. الآن لا شىء يتساوى. كل شىء قد تغير: تتفتح حدائق وبساتين، تتفتح مدينة تحت الشمس، ومعبد منسى يبرق.

فى الخارج؛ كانت الليلة تمضى بشكل مريح. ويصل إلىَّ مع الريح طنين دقات أجراس من بعيد. لم أحب أن أسمعها. فدقاتها تطن للغياب، وللموت. ولففت ذراعى حول خصرك متشبثة بجسدك كما لو كنت أتشبث بالحياة. لقد أزهر اليأس حبنا معًا، حتى إنه صار أكثر نأيًا عن الكلمات وعن الدموع. قلت أنت "الوقت متأخر جدًا"، "إذًا لابد أن تذهب". أحسست بحافة الفراش كما لو كانت حافة العالم، والفضاء الذى أبحرنا فيه مثل كوكبين التقيا، تأملتك وأنت ترتدى ثيابك، بسرعة وبدون اهتمام، وأنا وضعت قدمًا واحدة فى حذائى بدون رغبة، وكان علىَّ أن أبذل جهدًا كبيرًا لأنهض وأمشى حتى الباب لأودعك.

لم نتكلم، إذ يمكنهم أن يسمعونا، وأن يكتشفوا أننا قد اختلسنا الحب سرًا فى هذه الليلة، التى بدأت أتهاوى فيها وأنا ممزقة. والأجراس تواصل دقاتها التى يصل طنينها فى كل مرة أكثر وضوحًا محمولاً على رياح الفجر وطنين دقاتها تدوِّم بنا مثلما تدوم مياه زرقاء ممتلئة بأسماك صغيرة. ووصلنا بأيدينا

المتعانقة حتى الباب، وتبادلنا القبلات هناك مثل أولئك الذين يقبلون بعضهم البعض على أرصفة الموانئ. انغلق الباب وراءك وصار مثل صفحة انطوت، وكان لابد للواحد منا أن يجعلها بطول الحياة كلها. لم أفلح فى استيعاب أنك بالفعل قد رحلت، وأننى صرت، مرة أخرى، وحيدة. فتحت النافذة فلطم هواء الصباح البارد وجهى، كنت أرتجف من أخمص قدمى إلى قمة رأسى، وبدأت، فجأة، أمتلئ بالخوف، خائفة من أن الغد، اليوم، يتلاشى كل شىء، أو ينتهى مثل سحابة يبددها نور النهار. لقد عشنا ليلة ليست لنا، وسرقنا تفاحات، وأشاروا علينا بعلامة الصليب ووصمونا بالخطاة.

أحب أن أرى وجهى فى مرآة، لأعرف كيف أنا الآن؛ بعد هذه الليلة.

كان قد جاء. أدار المفتاح فى الكالون، وانفتح الباب. تظاهرت بالنوم حتى لا أتضايق.

لا أحب أن أقاطعه فى هذه الساعة، لأننى فى هذه الليلة، هذه التى لن يستطيع هو أن يتذكرها، ليال وأيام ونحن وحدنا، لأنها لا تخصه. دخل ليرى إذا ما كنت نائمة. تنهد بضيق، وأشعل سيجارة، ثم بحث بجانب التليفون إذا ما كانت هناك رسائل، خرج يتمشى بالغرفة، فتح الراديو، لم يكن هناك شىء يذاع، فالوقت متأخر، فقط موسيقى راقصة. تجول فى الغرف كلها، ثم اتجه للمطبخ. فتح الثلاجة، لم يكن بها شىء للعشاء. لم أكن قد تركت شيئًا، يوجد

فقط جزء ضئيل من لحم الفراخ. لو أحب، يمكنه أن يعمل ساندويتش. شىء ما وقع منه. هو يتحرك دائمًا ببطء شديد. إنه يغنى الآن، لابد أنه سعيد جدًا. وهى ظلت تمطر فى الخارج، وأصوات عويل الأوتومبيلات على الإسفلت المبتل. وفى ذلك اليوم أيضًا كانت تمطر فى الفجر، وفى الصباح كان الجو منعشًا إلى حد ما... هل توافقنى؟ لقد جئت مبكرًا جدًا، حاملا لى غصنًا من القرنفل الأحمر، وبقيت محتفظة به بين يدىَّ.. ولا أعرف تمامًا ما الذى كنت أقوله لك. لقد وقعت فى قلب دوامة من الدهشة والارتباك، فلم يحدث من قبل أبدًا أن أهدانى أحد زهورًا، إنها أول مرة. أحببت أن أقول لك ذلك، لكننا أخذنا فى الكلام حول الأشياء التى لا تخصنا، بينما كنت أضع زهور القرنفل بشكل منسق فى زهرية. وأنت وقع نظرك على الكتب فى رفوف المكتبة، وأخذت تتصفحها باهتمام زائد. أعرف أننا كنا غارقين فى هذه اللحظة، أو بكلمات مباشرة كنا منفعلين بشكل جعلنا مذهولين وأفقدنا الرؤية مثل نور شديد السطوع. ظللنا طافيين فوق هذه اللحظة بينما زعق كلاكس على الناصية كما لو أنه يزعق فى الماضى الأكثر بعدًا، ذلك الماضى الذى كان قبل أن تتلاشى أنت الآن فأفقد الإحساس بكل شىء، والوحيدة التى احتفظت بقوتها هذه اللحظات بالغة العمق والفوضى، حية بداخلنا نحن أنفسنا.

جلسنا متجاورين بجوار النافذة، نتطلع إلى الخارج كما لو كنا داخل قفص أو داخل مدرعة. تمنيت

أن أعيش هذه اللحظة نفسها فى الغد، فى يوم طلق لنا، وفكرت بمدينة حيث يمكننا أن نتمشى فى شوارعها دون أن يتعرف علينا أحد فيها ولا أن يحيينا، حيث نستلقى وحدنا على شاطئ أو نهيم متجولين فى الريف بأيدينا المتعانقة. أحب أن أعرف معك العالم. وأحب أن أدخل فى النوم وأستيقظ وأنا دائمًا بجوارك، أطيل النظر إليك. أتوق بشدة إلى أن أعرفك. وحتى عندما أكون وحدى أتذكرك، وعلىَّ أن أحل اللغز الذى لا تصرح لى به الآن؛ جزء من حياتى، هذه اللحظات التى أمضيها معك. أنا لا أعرف كيف أتكلم عن الأشياء التى تدور بداخلى. ربما، فى يوم ما، أكتبها لك وأنا جالسة بجوار نافذة أخرى. كما أننى لا أعرف حتى إلى أى مدى أنا سعيدة. فكل وداع هو بمثابة نزيف من الألم الذى يغتالنا ببطء. إننا مفعمون بالكلمات، والأحاسيس، والصمت الذى نجبر عليه نحن أنفسنا. ربما هذه الغرفة التى تضمنا واسعة أكثر من اللازم، أو ضيقة أكثر من اللازم، لذلك، فنحن لا نعرف ماذا نفعل بأجسادنا، ولا بالكلمات. تنظر إلى الساعة، والوقت سيف معلق فوق رءوسنا. بعد ذلك سيأتى المساء، خاويًا مثلما تكون تلك الأمسيات التى لا تكون معى فيها. عندما نكون مفترقين، وكل منا فاقد لنصفه الآخر. أشعر بتحديق نظراتك وأنت تنظر إلىَّ وتتنهد. لابد أنك مرهق. تتثاءب، ربما يكون الوقت متأخرًا جدًا. تتثاءب مرة أخرى، وتبدأ فى خلع ملابسك، والبدلة راحت تسقط

فوق المقعد. والسرير يهبط بك وأنت تجلس عليه لتخلع حذاءك. تدخل تحت الأغطية وتلتصق بجسدى، وتبدأ يدك فى مداعبتى. أحببت لو كان بإمكانى أن أقول لك ألا تلمسنى، وأن هذا لا جدوى منه، لأننى لست هنا وألا تبحث شفتاك عن شفتى. أنا الآن خارج كيانى. أنا بعيدة أقود الأوتومبيل فى الطريق الواسع، طريق أشجار الصفصاف، أسمع ضجة الصرخات فوق الرصيف. أنظر بطرف عينى إلى الكيفية التى يزحف بها عقربا ساعة السرعة على مينائها المرقم: ٧٠، ٨٠ والبيوت والأشجار تتدافع للخلف كلما تزايدت السرعة: ٩٠ ، ١٠٠طفلة جالسة فوق دكة تبكى، لابد لى من الوصول بسرعة، والطريق يمتد إلى الأبد. حيانى رجل وهو يبتسم، لم أحب أن أنتظره، اجتزت الإشارة الحمراء، فالشىء الوحيد والمهم هو أن أصل، فأنت تنتظرنى عبر الأيام وعبر السنين، على الرغم من الموعد الذى تحدد، والذى لم يتحدد، لكن من الضرورى جدًا أن نلتقى. ليست هناك طريقة أخرى لأقول لك ذلك. أجرى إليك ونرتمى فى أحضان بعضنا، ونتعانق عناقًا طويلا، نسير وأصابع أيدينا متعانقة، نسير حتى نهاية العالم. أطبق الليل كنذير، زمن طويل قد ضاع، الشوارع خالية، ونحن الوحيدون الباقون على قيد الحياة فى الصيف. هذه حديقة معمرة فى انتظارنا، والزمن تركها مهملة. كنا مكتملين تمامًا حتى أننا لا نرغب فى عمل شىء، فقط، نجلس على مقعد الحديقة الطويل هذا. ونلبث مثل اثنين يسيران فى نومهما فى الحلم نفسه.

كانت الطيور تحوم بين أغصان الأشجار، وأوراق تتساقط، كنا متحدين بأيدينا وأعيننا وقد نجحنا اليوم فى الانعتاق من روتين الأيام المتشابهة. كنا هنا، كما نكون دائمًا. هنا نحن، مطمئنين بلا وداع، ولا مسافات تحول بيننا وبين استعادة حياتنا المتواصلة. دقت الساعة العاشرة فى هذه الليلة الأبدية. لقد انقضت ألف سنة، وانقضت مرة أخرى أو مرتين، الطيور تحوم بين أغصان الأشجار، وتتساقط الأوراق. ننظر إلى واجهة كنيسة قديمة، بين الضباب الحار فى طلعة النهار. ننظر إلى الأعمدة والطاقات، كما لو كان ذلك من خلال التذكر. لا تتكلم الآن. احتفظ بى بين يديك، وحافظ على قطعة العملة، وجهك ووجهى لليالى الممطرة، والتى تشتد فيها وطأة الملل بشكل فظيع. والإحساس كله ينمحى منا. سهرة من أجل سحب خاوية تمر على وجه القمر كما لو كانت جرحًا مضيئًا فى السماء السوداء. تحوم الطيور بين الأغصان، تتساقط الأوراق. تنحبس الكلمات فى الحنجرة. إنها استعمالات زائدة لقولها. نحيا ليلة دائمة لنا. أتشبث بيديك وبعينيك. إنه شديد الوضوح الصمت، الذى يصغى إليه دمنا. الإنارة فى الشوارع شحبت. ولا روح حية واحدة تعبر من أية ناحية. والأشجار التى تحيط بنا كانت متحجرة. ربما نحن أموات، ربما نحن أكثر نأيًا عن جسدينا.

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «ماری نیمیه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى» رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «اسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتَّه كروناور» مختارات.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى سا.

الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات جين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات جين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».
رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيڤين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيال بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غدًا.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

٨٣ ـ بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هِرْمَن هيسِّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ لافينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى ليجوين».. رواية «جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ـ سنوات الهروب.. بلينيو أبوليو ميندوثا.. جائزة بلازا إي خانيس ١٩٧٩.

٢ ـ الباحث عن الذهب.. ج. م جوستاف لوكليزيو... جائزة نوبل ٢٠٠٨.

٣ ـ جائزة أو. هنري.. مجموعة مؤلفين.. جائزة أو. هنرى للقصة القصيرة ٢٠٠٧.

الكتاب

هذا الكتاب هو مجموعة قصصية من مجموعات "أمبارو دابيلا" القليلة والباذخة الجمال والفرادة فى الوقت ذاته، تواصل فيها مابدأته فى مجموعتها القصصية الأولى "حين تقطعت الأوصال" الصادرة عن سلسلة الجوائز نفسها بترجمة آسرة للكاتب: "محمد إبراهيم مبروك" أيضاً.
تنتقل "أمبارو دابيلا" هنا عبر تنوع بالغ الثراء لشخوص تُعالجُ ما يمورُ بداخلهم بمشرط كاتبة شديدة الرهافة والشاعرية، وهى تتجول بسلاسة ونعومة بين وحدتهم وتفاصيل حياتهم اليومية الشائكة ومآزقهم الوجودية وأحلامهم وهزائمهم، وتفتش فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم متحكمة فى أدق تفاصيلِ السردِ وواضعة أمام عينيها رغبة عارمةً ومدهشةً لاكتشاف ماهية الذات الإنسانية وصراعها الداخلى والخارجى مع الكون الشاسع من حولها.

الكاتبة: أمبارو دابيلا، كاتبة مكسيكيـ
الجائزة: جائزة بياروتيا عام ١٩٧٧.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774216864
6 221149 019911

١٠ جنيهات